سلسلة الدراسات التربوية والنفسية

(٤)

سيكولوجيـة الصهيونيـة

الدكتور : محمد عبد الفتاح المهدى

استشارى الطب النفسى

تقديـم

أ.د. يسرى دعبس

الناشـر

البيطاش سنتر للنشر والتوزيع

٢٤ عمارة برج عين شمس / شقة ٣

الإسكندرية : ٤٨٤١٤٦٩ / ٤٣٥٢٣١٩ / ٠٣

فاكس : ٥٨٣٧٢٥٣

- اسم الكتاب : سيكولوجية الصهيونية
- اسـم المؤلف : د. محمد عبد الفتاح المهدى
- اسم الناشـر : البيطاش سنتر للنشر والتوزيع
- اسـم المطبعة : فجر الإسلام - الإسكندرية
- سـنة الطبـع : ٢٠٠١
- رقم الإيـداع : ١٣٤٨٢
- الترقيم الدولى : 9 - 19 - 5929 - 977

﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا
كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا
خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ
وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا
جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا
وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾

(سورة الإسراء : من الآية ٤ – ٨)

إهـــداء

إلى روح الطفل الشـهيـد

محمد الدره

الذى احترق جسده وهو فى حضن أبيه

بنيران العنصرية الصهيونية

تقديم

ظلت الديانة اليهودية، ولفترات طويلة من الزمن، تمثل المعبد الذى يحتمى به اليهود وينغلقون داخله إلى أن ظهرت حركة التنوير اليهودية فى القرن الثامن عشر، ونادت بضرورة الاندماج فى المجتمعات التى ينتشر فيها اليهود وأن يكون لهم دور فعال فى تلك المجتمعات، على أن ينحصر الدين والتدين كسلوك وشعائر داخل المنزل والمعبد..

ثم ظهرت الصهيونية كحركة علمانية تطرح الحل الواقعى -من وجهة نظرها- لجمع شتات اليهود الهائمين فى بلاد الله، بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، وبعد أن كانوا شعبًا بلا وطن، أصبحوا شعبًا لهم وطن، فى حين حدث العكس بالنسبة للفلسطينيين.

وفى هذا السياق لم ينتبه دعاة الصهيونية إلى الكم الهائل من المشكلات التى قد تواجههم فى تحقيق حلمهم الكبير، مثل قضية الصراع العربى-الإسرائيلى، الصراع بين الدينيين والعلمانيين، والصراع الطائفى والثقافى بين الإشكناز والسفارديم والمهاجرين الروس والإثيوبيين، وإشكالية الصراع بين العقائد المبنية على الأساطير والسياسة الواقعية المبنية على المصالح، وكذلك الصراع بين مركزية الشتات ومركزية إسرائيل وغيرها..

وإجمالاً فقد أدى كل ذلك إلى تمزق أو تشتت النموذج الإسرائيلى بين ثقافات وطوائف وقوميات لها خصوصياتها الثقافية والعقائدية، والتفرقة فى التعامل على المستوى الداخلى بين اليهود المهاجرين لإسرائيل والرؤية المختلفة بين اليهود الغربيين والشرقيين إلخ، وانعكاس ذلك فى فرص الحياة والعمل والمركز والمكانة والدور.. إلخ. ناهيك عن المواقف المتصارعة حول ماهية هوية الدولة من حيث كونها كنعانية أم يهودية دينية أم يهودية علمانية أم إسرائيلية.

ولذلك فإن الهدف الرئيسى للصهيونية كحركة علمانية سياسية استعمارية هو إقامة المجتمع أو الدولة اليهودية الحديثة بعيدًا عن كل عثرات وقيود وعقد الماضى من مجتمع الطائفة اليهودية فى الشتات اليهودى، والمذابح التى تعرضوا لها فى روسيا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ثم تعرضهم لكافة أنواع التعذيب الوحشى فى ألمانيا النازية من خلال إلقائهم فى المحارق أحياء فى النصف الأول من القرن العشرين.

وفى مقابل هذا التعامل اللاآدمى والوحشى والاضطهادى لليهود فى دول

الغرب وروسيا، نجد أنهم نعموا بالعيش فى أمان وسلام وطمأنينة فى البلاد الإسلامية، بل منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، بالرغم من أنهم كانوا ينقضون العهود وطالما أمّنهم أشرف خلق الله ورسول الحق رغم خيانتهم ومكائدهم له. ومما يؤكد اندماج هؤلاء ودخولهم فى علاقات اقتصادية وتجارية وثقافية فى البلدان الإسلامية، العدد الكبير من اليهود الذين كانوا يعملون بالفن فى مصر والشام خاصة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بالإضافة إلى تملك العديد من اليهود لكثير من المحال التجارية والمشروعات الاقتصادية الضخمة فى الدول العربية والإسلامية التى عاشوا فيها، ومشروعاتهم الضخمة الآن تحت ستار الشركات متعددة الجنسيات.

بناء عليه نجد أن العلاقة بين الصهيونية كحركة والديانة اليهودية قد تحددت معالمها منذ بداية الحركة الصهيونية على أساس تفعيل الجانب السياسى لكونه هو العامل المسيطر والفاعل مستقلاً عن الدين، مادام زعماء الصهيونية كحركة علمانية هم القادرين على تحقيق حلم الصهيونية فى إقامة الدولة اليهودية.

ولكى تفعّل الصهيونية وتدعم حركتها، أخذت بعنصر الدين اليهودى كستار حتى يمكنهم اجتذاب المهاجرين اليهود المتدينين غير العلمانيين من مختلف بقاع العالم، ولذلك أصبح الدين محجّم ولا يخرج عن دائرة التعبد داخل إطار الأسرة أو العائلة اليهودية، ولم يعد هو العامل الفاعل فى تنظيم وتفعيل الدولة اليهودية كما هو الحال بالنسبة للصهيونية كحركة علمانية.

وتأتى أهمية الكتاب الذى بين أيدينا فى كونه تناولاً غير مسبوق حول سيكولوجية الصهيونية، وهنا نجد المؤلف بمهارة عالم النفس والمعالج النفسى التحليلى يبرز بهدوء وبثقة وبتروى معالم ومحددات وسمات الشخصية اليهودية من خلال تتبع كافة المظاهر والأنماط السلوكية والتعبيرات الحركية والانفعالية والوجدانية فى إطار تتبعه المستمر عبر كافة وسائل الإعلام المرئى والمسموع لكافة التصريحات والتعليقات والأحاديث والندوات واللقاءات وقيامه، وفق أسس التحليل والعلاج النفسى، بتتبع محددات الشخصية من خلال ذلك.

فقد تناول فى الفصل الأول بعض الحقائق عن طبيعة النشأة وأصول التسميات، مستعرضًا طبيعة النشأة والتسميات واليهودية بين القومية والديانة والصهيونية.

ثم تناول الفصل الثانى سمات الشخصية الصهيونية، وهنا خرج إلينا هذا الباحث الجاد بمجموعة من الصفات والسمات الشخصية التى تأخذ فى طابعها سمات

ومحددات الشخصية القومية اليهودية، مثل سمات الإله وسمات اليهود، واليهود والأسطورة فى حياتهم، التشوه (التشوش) الإدراكى، شعب الله المختار، عقدة الاضطهاد، العزلة، الهاجس الأمنى كحالة إدراكية مرضية، الاغتراب، الصراع الطائفى، العنصرية، التعصب، صورة البطل، التحريف، المراوغة، والتى تبرز فى أنماطهم السلوكية العدوانية والرغبة فى التدمير والانتقام، واستخدام العنف والقسوة وتصعيد الأعمال الإرهابية وسفك الدماء، والسلب والنهب، واغتصاب العرض والمال، والغش والتدليس والخديعة وحياكة المؤامرات وتدبير المكائد.

... إلخ. تلك السمات التى أخضعها للاختبارات والمقاييس النفسية والسلوكية لحالات مرض البارنويا فكانت هذه نتيجة صائبة.

ثم تناول فى الفصل الثالث الشخصية الصهيونية والاختراق الفيروسى مستعرضًا انعكاسات السمات الشخصية الصهيونية فى الفعل والقول وطبيعة أنماطهم السلوكية وتفاعلهم وتعاملهم مع الآخر، مثل العداء للسامية وقتل الأنبياء والمصلحين ... جريمة باروخ جولدشتاين... الحمائم والصقور

وعالج الفصل الرابع الصهيونية كحالة مرضية مستعرضًا رؤيته كمحلل نفسى لحالة التميز وسيكولوجية الأقلية مستنتجًا أنهم ليسوا سواء، ويقدم لهم الحل والعلاج ليصبحوا أسوياء.

والكتاب فى مجمله محاولة جادة غير مسبوقة فى إطار تناولها العلمى والمنهجى حيث أخذ بالاتجاهات النظرية الموجهة لعلوم البحوث النفسية ومتوجة بالمختبرات المعملية والتحليلات النفسية، مما جعلها تشكل فى النهاية جهدًا علميًا كبيرًا تحتاج المكتبة العربية لمزيد منه فى إطار فهم الصهيونية والمجتمع اليهودى من مختلف الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية والأمنية والنفسية.. إلخ

والله الموفق والمستعان

أ. د. يسرى دعبس

المقدمة
شهادة طبية

المقدمة

شهادة طبية

هذا الكتاب يهتم في الأساس بدراسة الجوانب النفسية في الحركة الصهيونية، وهو الجانب الذى أعتقد -على حد علمي- أنه لم ينل حقه من الاهتمام فيما كتب عن هذه الحركة، فعلى الرغم من كثرة الدراسات حول الجوانب السياسية والجوانب التاريخية والجوانب الدينية للصهيونية، إلا أن الجانب النفسى كان أقلهم حظًا.

ولقد جاءتنى فكرة الكتاب حين كنت أرقب -بعين الطبيب النفسى- سلوك المنتسبين والمتحمسين للحركة الصهيونية، سواء على الطبيعة أو على شاشات التلفاز من قادة سياسيين أو عسكريين أو جنود أو مستوطنين (مستعمرين)، فكانت تراودنى فكرة السلوك المرضى، ثم تتأكد هذه الفكرة مع متابعة ذلك السلوك الذى يخرج بوضوح عن سياق السلوك الإنسانى العام سواء فى تركيبته الفكرية الأسطورية أو فى آلياته أو ممارساته أو غاياته. وكنت أحاول جاهدًا أن أستبعد هذه الفكرة وأتهم نفسى بشبهة التحيز، ولكن تداعيات الأحداث كانت تبرز بوضوح ذلك الجانب المرضى فى سلوك الإسرائيليين بالدرجة التى تجعل الصمت أمام هذه الظاهرة المرضية بمثابة خيانة للأمانة العلمية.

وعندما عدت إلى التراث الفكرى والدينى للحركة الصهيونية، وجدته مليئًا بالأساطير والإشكاليات التى تكون بناءً معرفيًا شديد الخطورة، ليس فقط على معتنقى هذا الفكر وإنما على المجتمع الإنسانى كله، فازددت رعبًا وازددت إصرارًا على تسجيل هذه الرؤية وهذه الشهادة الطبية رغم عزوفى الشخصى عن الدخول فى هذه المجالات خشية الاقتراب من مجالات السياسة التى لا أحبها ولا أحب التورط فى دهاليزها المظلمة، لذلك أنبه القارئ إلى أن الكتاب الذى بين يديه ما هو إلا تقرير طبى، ولذلك لا يصح استخدامه فى غير موضعه وهو المجال الطبى الذى يهتم بإبراز المظاهر المرضية بهدف علاجها، وليس بهدف التشفى أو النبذ أو التشهير.

ولست أهدف من هذا الكتاب خلق توجهات عنصرية ضد جنس أو دين، فالمشكلة هنا ليست صراعًا طائفيًا أو عرقيًا يؤدى إلى دمار الطرفين، وإنما نحن بصدد سلوك مرضى نعالجه أو نحاصره سواء صدر من هنا أو هناك، فالعدوان والتعصب والعنصرية سلوكيات مرفوضة سواء صدرت من مسلم أو يهودى أو مسيحى أو بوذى، فالعبرة هنا ليست بالشخص أو الجنس أو الدين، وإنما العبرة بالسلوك المرضى الذى يحتاج إلى تقويم.

ورغم تواضع مادة هـذا الكتـاب (على الأقـل فـى نظرى)، ورغـم تواضـع مكانة مؤلفه، إلا أننى كنت أشعر أننى أؤدى ما علىّ وما أستطيعه نحو خطر أشعر أنـه لا يقتصر على فلسطين أو المنطقة العربية، وإنما خطر يهدد إنجازات البشـرية، ويعطـل سعيها ويقوض مكاسبها التى حققتها فى مجالات الحريـة وحقـوق الإنسـان والمسـاواة ورفض التعصب والعنصرية.

وأنبّه القارئ (أيًا كان جنسه أو لونه أو دينه) أن ينظر فى نفسه أولاً ويتتبـع آثار ذلك السلوك الذى ننقده فى هذا الكتاب، وألا يسارع بإسقاط كـل السـلبيات على الآخر وينسى حظه منها، فلا يصح أن يكون الطبيب أكثر مرضًا من مريضه.

وأعلن للقارئ شعورى بالعجز أمام هذا المرض العضـال وأطمئـن نفسـى إلى أن مسئولية العلاج لهذا السرطان الصهيونى تقـع على عـاتق المجتمـع الإنسـانى كلـه وليس على الأطباء وحدهم، وإذا لم ينهض المجتمع الإنسانى بهذه المهمة فسوف يدفع الثمن الذى دفعه فى الحرب العالمية الثانية (٤٥ مليونًا من القتلى) جراء سكوته علـى الفكر النازى العنصرى وهو فى بدايته.

وعلى الرغم من أننى كتبت بعض الصفحات فى هـذا الكتـاب ثـم أخذتنـى مشاغل كثيرة بعيدًا عنه، إلا أنه حدث إننـى كنـت أبحث فـى موضـوع العلاقـة بـين مستوى التدين ونوعيته وبين الصحة النفسية، ورحت أستعرض المقالات والدراسـات المنشـورة فـى المجـلات العالميـة، فلفـت نظـرى كـثرة الدراسـات التـى تتحـدث عــن الاضطرابات النفسية لدى اليهود فى إسـرائيل، وكـانت هـذه بمثابـة كشـاف رحـت أسلطه على ذلك المجتمع الذى نشأ بطريقة غير شرعية فى أرض الرسالات السـماوية السمحة، وعدت إلى تدقيق النظر فى ملامحهم وانفعالاتهم وسلوكياتهم كلما سنحت الفرصة لذلك. وفى كل مرة كنت أكتشف ملامح السـلوك العصـابى فـى قسـمات الوجه وحركات الجسم العصبيـة والمتشـنجة خاصـة لـدى المتدينـين المتطرفـين منهـم (وهم كثير فى هذا المجتمع)، وقـد تعجبت مـن حركـاتهم السـريعة والمتشـنجة أمـام حائط البراق، الذى اغتصبوه وأسموه حائط المبكى، ولعل الاغتصـاب والتسـمية لهـذا الحائط تشير من جوانب كثيرة إلى الجانب المرضى حتى فى العبادة على غير ما نلمحه فـى صلـوات بقيـة البشـر مـن الهـدوء والسـماحة والاسـترخاء والطمأنينـــة، وكـأن الإسرائيلى الذى يهز جسمه أمامًا وخلفًا أمام هذا الحائط المغتصب يشـعر فـى قـرارة نفسه أن أصحاب هذا الحـائط قـادمون، لذلـك لا يسـتطيع أن يـؤدى العبـادة أمامـه مطمئنًا مثلما يفعل بقية البشر.

وقد كانت تقلقنى قضية علمية، وهى قضية التعميم، فمـن المعروف علميًـا

أنه من الخطأ أن نقول إن الشعب الفلانى يتسم بكذا وكذا لأن هـذا الشعب يحوى خليطًا متباينًا من البشر لهم صفات وتوجهات غاية فى الاختلاف، لذلـك ربما يكـون من الخطأ أن نقول بأن اليهود يتصفون بصفات كذا وكـذا، حيـث أن منهـم العلماء ومنهم الفنانين والمبتكرين ومنهم المغتصبين والعدوانيين.. إلخ، ولكن فى حالة إسرائيل فإن الأمر يختلف، ولذلك يجوز التعميم دون الوقوع فى خطأ منهجـى علمـى، حيـث أن اليهود الذين حضروا إلى إسرائيل ليسوا عينة عشوائية من اليهود، وإنما جاء إليهـا الشـخصيات التـى لديهـا ميـل لقبـول الفكـر الصهيونـى الـذى يدعـو إلى التعصـب والعنصريـة والاستعلاء والعـدوان، ولذلـك فاحتمـالات وجـود دعـاة سـلام بينهـم احتمالات مشكوك فيها، حيث يصعب تخيل داعية سلام (حقيقى) جاء من الشرق أو الغرب لكى يغتصب بيتًا فلسطينيًا أو أرضًا فلسطينية، ويعرف حق اليقـين مـاذا كـان مصير أصحاب البيت وأصحاب الأرض الذين حل محلهم.

وأختم هذه الشهادة بتنبيه؛ وهو أننـا لا نتعـرض لليهوديـة كـأحد الديانـات المقدسة، والتى يعتبر الإيمان بها جزءًا من عقيدتنـا، وإنما نحـن نركـز علـى الصفـات والملامح النفسية فى القومية اليهودية والتى تبلورت فى صورة الحركة الصهيونية ثم تجسدت فى الكيان الإسرائيلى، وأنبه القارئ ألا يأخذه الحماس الجارف فيتبنى موقفًا عنصريًا تعصبيًا فيقع فى نفس الخطأ الذى نحن بصـدد علاجـه فـى الفكـر الصهيونـى فبدلاً من أن نعالج شخصًا من عنصريته نضيف إليه عنصريًا جديدًا، ربما يكون أخطـر من سابقه. وإنما أرجو أن تكون هذه الشهادة بمثابة محاولة جادة لإعادة النظر وإعادة التقييم وترتيب البيت الإنسانى بشكل هادئ وجاد وموضوعى، شأن كل الممارسـات الطبية التى تعمد إلى تحقيق الشفاء والمصلحة بأقل الخسائر الممكنة حتـى وهـى تجتـث سرطانًا خبيثًا.

المؤلف

د. محمد المهدى

المنصورة ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م

الفصل الأول

طبيعة النشأة وأصول التسميات

طبيعة النشأة وأصول التسميات

١ـ طبيعة النشأة :

كثيرًا ما تعطى طبيعة النشأة وأصول التسميات فكرة مهمة عن التركيبة النفسية لأى مجتمع بشرى، فالبدايات الأولى يكون لها عمق نفسى غائر تمتد آثاره إلى كل ما يليها من فلسفات وأفكار ووجدانات وسلوكيات.

فالشعب الإسرائيلى جذم سامى انفصل عن الأمة السامية الكبرى (أبناء سام ابن نوح)، ولايزال الرأى الراجح لدى المؤرخين أن الجزيرة العربية كانت هى المهد الأول لجميع الشعوب السامية، ولا يمكن تحديد الزمن الذى نزحت فيه هذه الجماعة من الجزيرة العربية إلى أرض الرافدين، ولا يكاد التاريخ يذكر شيئًا عن حياة هذه الجماعة فى تلك البقعة حتى كان العهد الكلدانى حين كانت "أور" (Ur) عاصمة كبيرة تتمتع بحضارة راقية، وتحت حكم ملوك أقوياء، ففى هذا الوقت ظهر إبراهيم عليه السلام رئيسًا على جماعة هاجر بها إلى بلاد الشام، كما انتقل إلى مصر وعاد منها بجارية تدعى هاجر ولدت له إسماعيل... ومن ثم دبت الغيرة فى قلب سارة – الزوجة التى جاء بها من أور– فلم تطق هاجر معها، فذهب بها (هاجر) إلى مكة لتقيم مع ابنها بجوار البيت الحرام... ورزقت سارة من إبراهيم على الكبر ولدها إسحاق، ولد لإسحاق ولدان: عيسو ويعقوب، وعيسو هو الأكبر لكن قيادة الأسرة وكيانها الدينى أسند إلى يعقوب. وسمى يعقوب باسم إسرائيل وتزوج أختين بنتى خاله "لابان" كانت أولاهما تدعى "ليئه" والثانية تدعى "راحيل". وأنجبت راحيل ولدين أكبرهما يوسف الذى كان أبوه يحبه كثيرًا حتى أثار غيرة إخوته منه وكراهيتهم له فصمموا على التخلص منه، ونقلته قافلة مهاجرة إلى مصر فشب وترعرع فى مصر، وسجن، ثم كان أمينًا على خزائنها. ثم أحضر يوسف أباه وإخوته إلى مصر فأقاموا بها سنين طويلة يقال إنها كانت ٢٢٠ سنة، تكاثروا خلالها ونما عددهم واكتسبوا كثيرًا من حضارة المصريين، ولكنهم ظلوا منفصلين ومميزين عنهم ولهم بقعة خاصة يقيمون بها. وحدثت أسباب تدعو إلى الخصومة والتباغض بين المصريين وبنى إسرائيل حتى جاء فرعون لا يعرف من كان يوسف، فاشتط فى التنكيل وأسرف فى تعذيب الإسرائيليين فكان يقتل من يولد لهم من الذكور، ويستبقى الإناث. وفى هذه الأثناء ظهر موسى عليه السلام.. وقصة نشأته فى بيت فرعون معروفة.. كذلك هجرته إلى "مديان" فى سيناء وإقامته مع شعيب عليه السلام وزواجه من ابنته، وجاء إلى مصر ليخلص قومه من بطش فرعون. أقام موسى فى

مصر يناضل حتى استطاع أخيرًا أن يفلت ببنى إسرائيل إلى أرض سيناء، ومكث أبناء إسرائيل فى هذه البقعة أربعين عامًا، مات خلالها هارون وموسى، فانتقلت قيادة الإسرائيليين إلى يوشع (شلبى ١٩٩٧).

وتبدأ المرحلة الثانية بخروج يوشع (يسمونه فى التوراة يشوع – المؤلف) من أرض سيناء –بالشعب الإسرائيلى الذى معه– إلى أرض فلسطين، وكان هو القائد الأعلى، ونزلوا عقب خروجهم من سيناء إلى بادية شرق الأردن فى الجنوب الشرقى من سوريا، وظلوا يوالون الحروب مع البلاد المجاورة للاستيلاء على أماكن خصبة، وتأسيس دولة خاصة بهم، فطالت هذه الحروب، وامتدت حتى استطاع يوشع أن يقتطع مدنًا من مملكة كنعان فى فلسطين من أهمها أريحا، وهى مدينة مقدسة كان يهوه إله العبرانيين قد وعدهم بها، وقد أشعل يوشع فيها النار فأحرقها وأباد سكانها ومزروعاتها، وكان هذا نصرًا عظيمًا له، ثبت به أقدام الدولة الناشئة. وبتثبيت قدمها فى هذا الطرف، أخذت تناضل لتستولى على أرض أوسع واستمرت حروبها إلى ألف عام أو ما يزيد بعد ذلك (شلبى ١٩٩٧).

يلحظ القارئ بسهولة أن النشأة ارتبطت منذ بداياتها وحتى نهايتها بالغيرة والاستعباد والعزلة والطرد والتشرد والعنف والنهب والإبادة والحرق، ولعل هذه التركيبة تعطى تفسيرات لطبيعة هذا الشعب فيما بعد.

وبعد حوالى ١٦٠ عامًا أرادوا أن ينصبوا عليهم ملكًا، فاختار لهم صموئيل (رئيسهم الدينى) شاءول فكان أول ملك عليهم، وقد جاء فى القرآن الكريم (سورة البقرة آية ٢٤٦ وما بعدها) إشارة إلى هذا حيث ذكر شاءول باسم طالوت. وكان شاءول ملكًا فاشلاً لم يستطع أن يحقق لهم نصرًا ضد الفلسطينيين، بل واجه هزيمة شنيعة. وكان داود عليه السلام –ثانى ملك عليهم– هو الذى قتل جالوت –زعيم الفلسطينيين– ومد حدود دولة إسرائيل إلى أقصى ما وصلت إليه من السعة، وهو الذى اتخذ مدينة أورشليم (القدس) لتكون عاصمة الدولة، واستمر حكمه نحو ستين عامًا.. ثم خلف سليمان أباه داود واستمر حكمه نحو أربعين عامًا (٩٦٣–٩٢٣ق.م) وهو الذى بنى الهيكل بناءً فخمًا مكان الهيكل الذى بناه أبوه (شلبى ١٩٩٧).

٢ـ أصول التسميات :

بعد هذا الاستعراض الموجز –جدًا– لطبيعة نشأة الشعب الإسرائيلى، نستعرض بعض المسميات المتداولة لنعرف جذورها ومدلولاتها التاريخية والنفسية :

٢/١ العبرانيون أو العبريون :

هم الذين جاءوا مع إبراهيم عليه السلام من بلاد الكلدانيين إلى أرض كنعان، سموا كذلك لأنهم عبروا نهر الفرات متجهين إلى هذه البلاد، أو لأنهم عبروا نهر الأردن فى تجوهم فى بلاد الكنعانيين. وتعزى هذه التسمية فى التوراة إلى عابر بن سام بن نوح، الذى هم من سلالته، وهذه التسمية الأخيرة مما فنده بعض المستشرقين، وعابر هذا لم يكن أكبر أبناء سام، ولا جدًا أدنى لإبراهيم، ثم إن أبناء نوح وسلالاتهم ممن ذهب بهم الدهر ولا يطمأن إلى تاريخهم (شلبى ١٩٩٧)

٢/٢ الإسرائيليون :

هم أبناء يعقوب. وبهذا يخرج من أسرة الإسرائيليين كثير من العبرانيين مثل لوط وذريته وإسماعيل ونسله، وأيضًا عيسو بن إسحاق.. فهؤلاء عبرانيون وليسوا إسرائيليين (شلبى ١٩٩٧).

وكلمة "إسرائيل" تعنى "قوة الله"، وهى مأخوذة من لفظتين ساميتين قديمتين هما "أسر" بمعنى القوة والغلبة، ولفظة "أل" أى الله (ظاظا ١٩٩٠).

وكلمة إسرائيلى فى مفهوم دولة إسرائيل الحالية تعنى: اليهودى المقيم فى إسرائيل، واليهودى المقيم فى خارج إسرائيل أيضًا، بشرط أن يكون صهيونيًا متمسكًا بالولاء لإسرائيل (ظاظا ١٩٩٠).

٢/٣ اليهود :

نسبة إلى "يهوذا" الابن الرابع ليعقوب، وكانت له الرسالة الدينية من بين إخوته، فنُسبوا إليه باعتبارهم أبناء هذه الديانة. وجاء فى بعض الكتب أنها نسبة إلى مملكة يهوذا -الإقليم الجنوبى من مملكة إسرائيل.. وهذا ليس بشىء (شلبى ١٩٩٧).

إذن فالأسماء الثلاثة السابقة (العبرانيون والإسرائيليون واليهود) ليست مترادفة، ولكن قد يستعمل أى اسم منها للجميع تجوزًا (شلبى ١٩٩٧).

٢/٤ اليهودى التائه :

كان بنو إسرائيل دائمًا فى حالة تمرد وعصيان ضد أنبيائهم وضد الأمم الأخرى، ولذلك كتب عليهم التيه والتشرد فى مراحل كثيرة من التاريخ، ولم يقر لهم قرار فى أى أرض يقطنونها، فسرعان ما تتعارض تركيبتهم النفسية العنصرية العدوانية مع السياق البشرى العام فيلفظهم المجتمع الذى يعيشون فيه فيعيشون فى التيه إلى أن يستقروا فى أرض أخرى ويعاودوا الكرّة. ورغم تكرار هذا التيه

والتشرد فإنهم لم يتعلموا من خبرات الماضى وأحداث التاريخ فيعاودون نفس المسلك الانتحارى مع كل الأمم والشعوب بلا استثناء.

وإذا كان هذا الشتات فى الشرق والغرب والشمال والجنوب قد اتخذ صورة الوعيد على ألسنة الأنبياء، فإنه فى أوربا المسيحية فى العصور الوسطى قد اتخذ صورة التنديد بالجرم اليهودى، وأصبح اليهودى التائه رمزًا لهذا الشعب الصغير الممعن فى القسوة والغرور (ظاظا ١٩٩٠).

وفى ذلك تقول أسطورة شعبية تعتبر هى المنطلق لشخصية اليهودى التائه:

كان اليوم الذى أُخذ فيه المسيح للصلب يومًا شديد الحرارة فى مدينة أورشليم، وكانت الجموع اليهودية قد عقدت على جبين المسيح إكليلاً من الشوك، وأرغمته على أن يحمل صليبه الثقيل على ظهره، ثم راحت تطوف به شوارع المدينة صاخبة شامتة مستهزأة، تمعن فى تعذيبه، وتتلذذ بإهانته وإيذائه. واشتد بالمسيح التعب والعطش ولفحه هذا الحر الشديد، فارتمى عند باب يهودى اسمه فى الأسطورة "أحشويروش"، وهو يلهث من التعب. وسمع اليهودى الضجة أمام بيته فنزل يستطلع الخبر، ورأى المسيح ملقى خائر القوى فى ظل بيته، فركله بقدمه وطرده قائلاً: اذهب من هنا، وابتعد بلعنتك عن بيتى. فنظر إليه المسيح، وعلامات الحزن والإرهاق بادية على وجهه، وقال له: إنك تنتهرنى وتحرمنى من ظل حائطك لأنك لم تجرب تعب المشى ولا عبء الإهانة والمطاردة. وسرعان ما تحدث المعجزة، فيبدأ أحشويروش فى المشى رغم أنفه، لا يستطيع أن يتوقف، وراح يسير حتى خرج من البلد، وأمعن فى السير حتى خرج من فلسطين، ثم كتب عليه أن يسير ويسير، وأن يظل ماشيًا إلى يوم القيامة، عليه معطف قديم ممزق، وعلى كتفه خُرْج فيه زاد حقير، وبيده عصاه، وفى جيبه قطعة صغيرة جدًا من النقود، وقد طالت لحيته، وتراكم عليه الغبار، يُرى فى حر الصيف بين الصخور وعلى الرمال، ويرى فى برد الشتاء على الثلوج وفوق الجبال. هذا هو اليهودى التائه، المخلوق الأسطورى الذى انبثق من صدام عنيف بين النفسية الإسرائيلية الكزّة، الشديدة التعصب والغرور والحقد على الأمم الأخرى، وبين النفسية الأوربية فى مسيحية العصور الوسطى، التى كانت تعانى من جوار المرابى اليهودى الأمرين، وتحاول بهذه الأسطورة أن تصب عليه لعنة المسيح (ظاظا ١٩٩٠).

وربما نتعجب من موقف اليهود من السيد المسيح عليه السلام، فقد كانوا ينتظرونه لكى يخلصهم من شقائهم وكان من المتوقع منهم اتباعه ومناصرته، ولكن الذى حدث أن دعوة السيد المسيح لم تلقَ لديهم قبولاً، فقد جاء يدعو إلى المحبة

والتسامح والتواضع فاصطدمت هذه المبادئ الرحيمة بتوجهاتهم التى تدعو إلى الحقد والانتقام والاستعلاء على باقى الأمم، ولذلك قامت العداوة بينهم وبين المسيح عليه السلام حتى حاولوا قتله.

٢/٥ التوراة :

هو كتاب اليهود ويتألف من ٣٩ سفرًا، والمعنى الحرفى للكلمة هو "التعليم"، وينسب إلى عزرا كتابة التوراة عن طريق إعادة كتابة التراث. أما التلمود فهو كتاب اليهود الثانى. وإذا كانت التوراة قد وُضعت بعد موسى بنحو ألف عام، فالتلمود وُضع بعد التوراة بعدة قرون (الحفنى ١٩٧٣).

إذن فطبقًا لذلك نستطيع القول إن التوراة والتلمود هما تراث دينى ربما يحويان بعض التعاليم التى جاء بها موسى عليه السلام، ولكن مما لاشك فيه أن هذه التعاليم مختلطة بكم هائل مما كتبه الأحبار بأيديهم فى ظروف سياسية واجتماعية مختلفة فرضت عليهم وضع الكثير من النصوص التى تخدم أهدافًا سياسية واجتماعية معينة وتحريف أو حذف بعض النصوص التى لا تخدم هذه الأهداف.

وبعيدًا عن عمليات التأصيل الدينى والتاريخى لنصوص التوراة والتى لها متخصصوها، فإننا بالنظر العلمى المتفحص نجدها مليئة بالقصص الأسطورية التى تتناقض مع معقولية الأحداث وتتناقض مع كثير من الحقائق التاريخية الموضوعية مما يجعلها فى مقام التفكير الأسطورى. ومع هذا نجد الشعب الإسرائيلى والحكومة الإسرائيلية ينبيان على هذه النصوص التوراتية الأسطورية مجمل توجهاتهم وسياساتهم ولا يكتفون هم بتصديقها وإنما يطالبون الآخرين بالإيمان بها والعمل وفقًا لما تدعو إليه. ويحدث هذا حتى فى المفاوضات السياسية التى يفترض أنها تتعامل مع الواقع ولا تتعامل مع الأساطير. والتوراة تشكل البناء المعرفى للمجتمع الإسرائيلى ليس فقط لدى المتدينين فيه وإنما لدى العلمانيين أيضًا. والمتأمل لسلوك المجتمع الإسرائيلى يجد تطابقًا عجيبًا بينه وبين النصوص التوراتية.

٢/٦ اليهودية : بين القومية والديانة :

على الرغم من أن التوراة هى الكتاب المقدس لليهود، وقد أنزلت على النبى موسى عليه السلام، وأصبحت علمًا على الدين اليهودى، إلا أن اليهود كقومية قد سبقوا ميلاد موسى بقرون طويلة، ولذلك يمكن القول بأن موسى وما أرسل إليه من التوراة لم يُنشئا اليهودية وإنما منحا اليهود (الموجودين قبلاً) ديانة أكثر تنظيمًا وتحديدًا من دياناتهم السابقة.

ولذلك فالحديث عن اليهود كقومية لها مواصفاتها الخاصة يختلف عن الحديث عن اليهودية كديانة، ومن هنا نستطيع أن نفهم حديث القرآن عن اليهود (وعن بنى إسرائيل) على أنه حديث عن فئة من الناس لها مواصفات معينة فى تعاملها مع الحياة، وليس حديثًا عن دين منزل من عند الله.

والصهيونية من هذا المنطلق هى بمثابة امتداد للقومية اليهودية حين اختارت التميز على باقى البشر فعزلت نفسها عن التيار الإنسانى العام، ولذلك تعرضت للاضطهاد فى مراحل تاريخية مختلفة، ولم يكن الاضطهاد قائمًا على اعتبارات دينية أو عرقية، وإنما كان قائمًا -فى أغلب الأحوال- على تصرفات محددة مرتبطة ببعض الصفات العنصرية التى يتمسك بها قادة الفكر والرأى فى هذا الشعب.

يقول فرويد (عالم النفس اليهودى الشهير ومؤسس التحليل النفسى): إن موسى هو محرر الشعب اليهودى، والذى أعطاه دينه وشرائعه (فرويد ١٩٥٥)، وهذا ما يؤكد سبق اليهودية كقومية على اليهودية كديانة.

بل إن فرويد يقرر فى كتابه "موسى والتوحيد" أن موسى مصرى وليس يهوديًا، فهو يقول : إن موسى مصرى، ومن المحتمل أن يكون من أصل نبيل، وتجعله الأسطورة يهوديًا. ثم يقول فى موضع آخر: «إن الإنسان موسى، محرر الشعب اليهودى ومانحه الشريعة الموسوية، لم يكن يهوديًا بل مصريًا.. ولكن الشعب اليهودى كان فى حاجة إلى أن يجعل منه يهوديًا» (فرويد ١٩٥٥).

وفى الواقع تحدث تداخلات بين القومية اليهودية والديانة اليهودية تختلف فى الدرجة من وقت لآخر، ولكن يبدو أن القومية اليهودية (والتى تتمثل حاليًا فى الصهيونية) كانت دائمًا أكثر بروزًا فى جميع المراحل التاريخية، بل إن القومية اليهودية قد قامت -كما تقول النصوص الدينية خاصة فى القرآن- بتحريف نصوص الديانة اليهودية وتطويعها لخدمة الأهداف القومية لليهود، خاصة أن نصوص تلك الديانة قد كتبت بعد وفاة موسى عليه السلام بمئات السنين. ويؤكد هذا قول فرويد (وهو يهودى) : «ولم تُعرف الديانة الموسوية إلا فى شكلها النهائى كما حدده لها الكهنة اليهود بعد النفى، أى بعد موسى بنحو ثمانمائة سنة» (فرويد ١٩٥٥).

وفرويد يعلم أن التوراة التى كتبها الكهنة تحوى الكثير من التحريف والتشويه والتناقضات، فنجده يقول : «عندما أستخدم رواية التوراة بمثل هذه الطريقة الاستبدادية والتعسفية وأقيس عليها لأثبت ما أقول كلما تراءى لى ذلك، وأرفض شهادتها دون أية شبهة عندما تتعارض مع نتائجى، أعرف جيدًا أنى أعرض نفسى بهذا إلى النقد العنيف فيما يتعلق بمنهجى، وأنى أضعف قوة براهينى، ولكن

هذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن أن أعامل بها مادة قد أتلف الوثـوق بهـا -كمـا نعرف جيدًا- بفعل نفوذ الاتجاهات المشبوهة» (فرويد ١٩٥٥).

وكما يحيط الغموض بكلمة يهودية، يحيط أيضًا بكلمة يهودى. فكلمة يهودى قد شاعت وذاعت فى أيام اليونان والرومان، أى من القرن الرابع قبل الميلاد، واستمرت حتى الآن. إذ كان سبط يهوذا، وهو أحد أبناء يعقوب، قد استقر فى جنوب فلسطين، وظهر منه سليمان وداود، ثم قام من بعدهما حكم ملكى فى بنى إسرائيل كله من يهوذا، يسيطر على العبريين فى هذا الإقليم، حتى سمى الإقليم نفسه يهوذا فى السجلات اليونانية والرومانية كما سمى أهله اليهود. ولاحقتهم هذه التسمية بعد جلائهم عن الأرض وتشتتهم فى البلاد. وفى الشتات اتخذ اسم اليهود معنىً بغيضًا بين الأمم؛ فهم أبناء هذه الطائفة المتمردة، المنطوية على نفسها، الشديدة التعصب، المتهمة بصلب المسيح، إلى جانب صفات سيئة أخرى اكتسبوها من الظروف الشاذة التى عاشوا فيها بين الأمم الأخرى على شكل أقلية محتقرة، من أبرزها: الجشع وحب المال والقسوة وعدم التدقيق فى نظافة الجسم والمسكن والثياب، حتى أصبح أمرًا عاديًا أن يسمع الإنسان فى بقاع متفرقة من الأرض عبارات مثل "اليهودى التائه"، "اليهودى الجشع"، "اليهودى القذر"، وهو أمر دعا كثيرًا من أثرياء اليهود إلى تجنب هذه التسمية وتفضيل اسم إسرائيلى عليها (ظاظا ١٩٩٠).

وهذا الخلط بين القومية والديانة يعتبر من أهم إشكاليات المجتمع الإسرائيلى، فعلى الرغم من النهج الاستعمارى الواضح لهذا الكيان إلا أنه يلبس مسوحًا دينية بهدف إضفاء القداسة والشرعية على سلوكه، ولكن العقلاء والحكماء من يهود العالم قد فطنوا إلى هذا الخطر وأعلنوا منذ البداية مقاومتهم للمشروع الصهيونى المتستر بستار الدين لأنهم يعلمون أن فى هذا تشويه لليهودية كديانة، فليس أخطر من أن ترتكب المذابح فى صابرا وشاتيلا ودير ياسين وقانا وبيت المقدس باسم اليهودية وتحت شعار نجمة داود. وعلى الرغم من أن غالبية المجتمع الإسرائيلى من العلمانيين إلا أن عقيدتهم السياسية ملغمة بالأساطير التوراتية خاصة فيما يتعلق بأرض المعاد وجبل صهيون ومملكة أورشليم وإبادة الفلسطينيين.

إذن فإسرائيل هى أخطر نموذج لاختلاط المفاهيم الدينية بالمفاهيم السياسية والقومية والاستعمارية والعنصرية، وهذا ما يجعلها تكوينًا شديد الانفجار شديد الخطورة.

وقد حاول فرويد تحليل ظاهرة تمسك اليهود بالأساطير الدينية -حتى

الملحدين بينهم- فاكتشف أنهم يلجأون لذلك كعامل تماسك خوفًا من التحلل والاندثار الذى يخيفهم باستمرار، وفى ذلك يقول :

«وتعلم اليهود من المصيبة السياسية التى حلت بهم أن يستسيغوا الشىء الوحيد الذى استبقوه مما كانوا يملكون، وهو سجلاتهم المكتوبة، وأن يقدروها حق قدرها. وبعد هدم تيتوس (إمبراطور روما) للمعبد فى القدس مباشرة، طلب الحاخام يوحنان بن سلكّاى الإذن بفتح أول مدرسة لدراسة التوراة فى يابنيه Jabneh. ومنذ ذلك الحين كان التوراة ودراسته هما اللذان أبقيا الشعب المبعثر مع بعضه البعض» (فرويد ١٩٥٥).

ولعل هذا يفسر أيضًا حرص اليهود على إحياء اللغة العبرية الميتة وجعلها لغة رسمية والإصرار على نشرها بكل الطرق وذلك بهدف تقوية دعائم القومية اليهودية بأكبر دعامتين وهما الدين واللغة.

٢/٧ الصهيونية :

هناك خلط -ربما يكون متعمدًا- بين الصهيونية كحركة سياسية استعمارية براجماتية، وبين الديانة اليهودية كأحد الأديان الساوية. وهذا الخلط يتعمده البعض كى يعطوا للصهيونية قداسة دينية، ولكنه فى ذات الوقت يشوه صورة اليهودية كديانة سماوية.

فالفكر الصهيونى هو فكر يطلب "الأرض" -أرض فلسطين- فى رمز جبل صهيون؛ أحد أهم جبال مدينة القدس وأشهرها فى التاريخ التوراتى المقدس لدى اليهود. هذا الجبل يقع فى جنوب غرب القدس القديمة، استولى عليه الملك داود -حسبما تقضى التقاليد اليهودية- من اليبوسيين سكان البلاد الأصليين، والذين اتخذوه كقاعدة للدفاع عن المدينة، وجعله داود مقرًا لحكمه، وسماه منذ ذلك الوقت "مدينة داود"، ومن ثم صار "صهيون" فى التقليد اليهودى من بعد داود مقرًا للسلطة الدينية والسياسية والعسكرية جميعًا.. وعن "صهيون" لم يجد غلاة المتعصبين من اليهود فى العصر الحديث تسمية أكثر سحرًا فى آذان فقراء اليهود من "الصهيونية"، وما تقترن به من قوة داود وشدة وشكيمة وأبهة حكم سليمان، وفخامته على عرشه الأسطورى العجيب، فاختاروها اسمًا وشعارًا (ظاظا ١٩٨٧).

وبداية هذا الفكر قديمة جدًا، وانطلقت صيحاته الأولى من مدينة "بابل" التى نُفى اليهود إليها على إثر أحداث السبى البابلى، والذى تمت أكبر وأعظم حلقاته فى عام ٥٨٦ قبل الميلاد. وقد دُوِّن هذا الفكر فى توراة اليهود، ونُسبت

أصوله الأولى إلى متنبئ مجهول يدعى "إشعيا الثانى"، وهو الذى ينظر إليه الباحثون على أنه الباعث الأول للفكر الصهيونى (فراج ١٩٩٩).

ومن أقوال إشعيا بهذا الشأن :

«من أجل صهيون لا أسكت ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برُّها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد» (إشعيا ٦٢/ ١)

ومن أشهر الصهاينة الأوائل أيضًا، ذلك الكتاب الذى جسّد أحلام وآلام اليهود بعد سبيهم فى المزمور ١٣٧ والذى قال فيه :

«على أنهار بابل جلسنا، بكينا أيضًا عندما تذكرنا صهيون... وإن نسيتك يا أورشليم تُنسى يمينى. ليلصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى» (مزمور ١٣٧ : ١-٦).

ومن هذه البدايات الأولى، ارتبط فكر اليهود بالقدس، وبحيث أصبحت كلمات أمثال هؤلاء الكتاب الصهاينة، مع مرور الزمن مكونًا أساسيًا فى صميم العقيدة اليهودية (جارودى ١٩٩٠).

وقد بدأت الحركة الصهيونية فى الظهور بقوة مع أواخر القرن التاسع عشر، ويُعد اليهودى النمساوى "تيودور هرتزل" (١٨٦٠ - ١٩٠٤) المؤسس الأشهر لهذه الحركة. وتيودور هرتزل وُلد فى فيينا وعمل بالصحافة، واتصل بالمسألة اليهودية عن طريق جمعيات ومنظمات فكرية، كانت تعمل من منظور إنسانى فى الظاهر لتسهيل هجرة أعداد من يهود شرق أوربا إلى فلسطين (هيكل ١٩٩٦).

وقد اختلف الباحثون والمفكرون فى تحديد طبيعة الحركة الصهيونية، فريق ذهب إلى أنها حركة دينية لا سياسية، ووصفها فريق ثان بأنها حركة سياسية لا دينية، وفريق ثالث قال إنها حركة دينية نشأت فى شكل الفكر الصهيونى منذ زمن النفى الأول فى بابل، ثم تحولت إلى حركة سياسية على يد "تيودور هرتزل".. وأضاف آخرون إلى ما سبق أنها حركة استعمارية (فراج ١٩٩٩).

وبعد بلورة الحركة الصهيونية فى شكل الكيان الإسرائيلى الحالى، وبعد رصد سلوك هذا الكيان على مدى الخمسين سنة السابقة نستطيع القول باطمئنان أن الصهيونية هى حركة سياسية عنصرية أخذت الدين ستارًا لتحرير أهدافها الاستعمارية.

ولقد درس روجيه جارودى الفيلسوف الفرنسى الشهير الحركة الصهيونية بعمق، وطرح نتائج دراساته فى كتابين هامين هما "إسرائيل بين اليهودية والصهيونية" (مترجم ١٩٩٠)، و"الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" (مترجم

١٩٩٦)، وقد خلص جارودى إلى أن: الحركة الصهيونية التى تزعّمها "هرتزل" وأعوانه، والتى أوجدت دولة إسرائيل، إنما هى حركة سياسية لا علاقة لها -البتة- بالدين اليهودى. ولإثبات وجهة نظره هذه انتهج جارودى خطة بحث من شقين (فراج ١٩٩٩) :

الأول : إثبات أن الحركة الصهيونية حركة استعمارية لا علاقة لها بالدين اليهودى.

الثانى : محاولة تبرئة الديانة اليهودية من بشاعة مسلك إسرائيل التى صنعتها الصهيونية.

وقد جاءت أدلة الأستاذ جارودى فى إثبات الشق الأول كالتالى (جارودى ١٩٩٦) :

١- قول هرتزل فى يومياته : إننى لا أنقاد لأى دافع دينى.

٢- قول هرتزل فى كتابه "الدولة الصهيونية" : إن المسألة اليهودية ليست بالنسبة لى مسألة اجتماعية ولا مسألة دينية.. إنها مسألة قومية.

٣- التوجه الأول لـ"هرتزل" الذى لم يظهر اهتمامًا خاصًا بـ"الأرض المقدسة" فلسطين، بل كان على استعداد لأن يقبل أيضًا، ومن أجل أهدافه القومية، بأوغندا أو طرابلس أو قبرص أو الأرجنتين أو موزمبيق أو الكونغو.

٤- توجه "هرتزل" إلى الاستعمارى الشهير "سيسل رودس" لطلب معاونته ومشورته.. حيث تسجل الوثائق بتاريخ ١١ يناير ١٩٠٢ نص هذه الرسالة من "هرتزل" إلى "سيسل" : «أرجوك أن ترسل لى نصًا يقول إنك قد فحصت برنامجى وأنك موافق عليه. وقد تتساءل لماذا أكتب إليك يا سيد رودس!!! ... ذلك أن برنامجى هو برنامج استعمارى».

٥- معارضة أشهر المراكز الحاخامية العالمية للحركة فور إعلان تأسيسها، ومطالبة كبار رجال الدين اليهود بمقاطعة هذه الحركة وعدم التعامل معها... وهنا يسجل "جارودى" نص هذا القرار التالى الصادر عن مؤتمر كبار الحاخاميين الذى عقد فى مونتريال عام ١٨٩٧ -وفى نفس توقيت انعقاد مؤتمر العمل الصهيونى الأول فى "بازل" بسويسرا- يقول القرر (جارودى ١٩٩٦) :

«إننا نشجب تمامًا أى مبادرة تهدف إلى إنشاء دولة يهودية، وإن أى محاولات من هذا القبيل تكشف عن مفهوم خاطئ لدولة إسرائيل.. التى كان الأنبياء اليهود هم أول من نادى بها.. ونؤكد أن هدف اليهودية، ليس بهدف سياسى ولا قومى، ولكن روحى.. فهو يشير إلى عصر مسيحى حيث يعترف كل الناس بأنهم ينتمون إلى طائفة واحدة كبرى لإنشاء مملكة الرب على الأرض».

ويضيف جارودى بأن هذا كان رد الفعل الأول للمنظمات اليهودية الأخرى ابتداءً من "رابطة حاخامات ألمانيا"، وحتى "الاتحاد الإسرائيلى العالمى بفرنسا"، و"الاتحاد الإسرائيلى فى النمسا"، وكذلك الرابطات اليهودية فى لندن" (فراج ١٩٩٩).

وعلى الرغم من الطبيعة السياسية الاستعمارية للحركة الصهيونية إلا أنها، وبشكل براجماتى، وجدت فى بعض النصوص التوراتية (التى كتبها الأحبار فى عصور السبى والتوتر) غطاءً دينيًا لها يضمن تعاطف المتدينين والمتطرفين اليهود فى أنحاء العالم، وضربت بعرض الحائط تحذيرات مؤتمر كبار الحاخاميين اليهود والذين كانوا ينظرون بعمق إلى مصير تلك الحركة العنصرية وخطورتها على اليهود وتشويهها لصورة الديانة اليهودية كديانة سماوية لها وظيفة روحية فى الأساس.

وتعامل القادة الصهاينة مع النصوص التوراتية بشكل انتقائى مغرض فاختاروا منها قصص مجازر يشوع (سيأتى الحديث عنها تفصيلاً فيما بعد) ضد الكنعانيين ليبرروا سياسات الإبادة ضد العرب فى فلسطين ولبنان ومصر والأردن، على الرغم من أن هذه النصوص التوراتية قد كتبها الأحبار كما ذكرنا فى زمن النفى والسبى والتوتر، وذلك لخدمة الأهداف السياسية لليهود، وقد وقعت أحداثها بعد موت موسى عليه السلام بمئات السنين لذلك فهى نصوص بشرية وضعها الأحبار، والمتأمل لمحتواها يلمح بسهولة طبيعتها البشرية الأسطورية والعدوانية، وهم مع ذلك يصرون على أن يلبسوها ثوب القداسة الدينية والدين منها براء.

الفصل الثاني

سمات ومحددات الشخصية الصهيونية والعوامل المؤثرة فيها

سمات ومحددات الشخصية الصهيونية والعوامل المؤثرة فيها

على الرغم من التكوين غير المتجانس للشعب الإسرائيلى إلا أن هناك سمات مشتركة تجمع هؤلاء الذين يعيشون داخل إطار إسرائيل أو حتى اليهود والمقيمين فى الخارج والمؤمنين والمتحمسين لفكرة إقامة دولة إسرائيل.

«فعلى الرغم من أن الناس فى إسرائيل مختلفون جدًا.. كالفرق بين اليمنى الذى قتل رابين والأسترالى الذى أحرق المسجد الأقصى، اختلاف نتنياهو وجينولا كوهين.. ولكن يهود العالم مثل فرقة موسيقية تعزف على آلات مختلفة لحنًا واحدًا، فلما اجتمعوا فى مكان واحد أمام مايسترو واحد، كانت لهم سيمفونية واحدة: أرض المعاد أو الميعاد» (أنيس منصور ١٩٩٩).

ويبدو أن لفظة يهودى قد أخذت فى أذهان أمم العالم معنى كريهًا منذ وقت مبكر، فقد جاء فى التلمود عند الحديث عن قصة أستير وعيد البوريم «أن كل كافر فى تلك الأزمان كان يدعى يهوديًا» (المجله ١٣: ٧١)... وهكذا نرى أن كلمة يهودى قد بدأت حياتها فى النفسية الإسرائيلية مصطلحًا عنصريًا يجمع بين العصبية العرقية والغرور السياسى، فكان رد الفعل من الأمم الأخرى أنها استعملته وصمة عار وسبة وسخرية فى وجه العبريين، وراح اليهودى فى كثير من بقاع الأرض يتهرب من هذه الصفة ويفضل عليها اسم الإسرائيلى.. ومع ذلك فإن وجود هذه المصطلحات المتقاربة قد أوقع هؤلاء الناس فى حيرة كبيرة، فالإسرائيلى اسم له صفة العنصرية، واليهودى اسم أصبح ينم فى النهاية عن العصبية الدينية، كما أن صفة العبرى أصبحت تقترن بذكريات عن عشائر قديمة جدًا مندثرة، ولكن النفسية الإسرائيلية انتهت إلى تقسيم الموضوع تقسيمًا تحكميًا اصطلاحيًا: فجعلت للجنسية مصطلح الإسرائيلى، وللدين مصطلح اليهودى، وللثقافة مصطلح العبرى (ظاظا ١٩٩٠).

ومن سمات هذه الشخصية الشعور بالانفصال عن البشر والتميز على الأمم الأخرى عن طريق الأنساب والأعراق، وعن طريق الأساطير الدينية والسياسية والتاريخية التى تراكمت مع الزمن وتحولت إلى معتقدات راسخة فى رؤوس اليهود يتصرفون على أساسها وبوحى منها.

ومن سمات هذه الشخصية: الصراع.. فاليهود لم يستطيعوا أن يتعايشوا مع غيرهم على مدى التاريخ، فسرعان ما كان ينشب الصراع، ولم يحدث هذا مع البشر

فقط وإنما بدأ الصراع أول ما بدأ مع الله؛ حيث تقرر التوراة نصه صراع يعقوب مع رجل الليل (الإله) حتى أتعبه، ووصف يعقوب لابنه يهوذا -جد اليهود- بأنه شبل أسد، وأن يده على نواصي أعدائه (وأعداؤه هم كل الأمم من غير اليهود)، وهو يقول له صراحة: «من صراع نشأت يا بنى» (التكوين ٤٩ : ٩). والصراع لديهم يصل إلى أقصى درجات الدموية، فقد ورد فى كتابهم المقدس أن يوشع بن نون أراد -بعد موت موسى- أن يدخل بقومه إلى فلسطين، فعسكر حول مدينة أريحا وأمر بالنفخ فى الأبواق، «فلما سمع الشعب صوت البوق، هتف الشعب هتافًا عظيمًا، فسقط السور فى مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة كل امرئ لوجهته، وأخذوا المدينة، وأبادوا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف» (يشوع ٦: ٢٠، ٢١).

وقصة شمشون وصراعه مع أعدائه ومبالغته فى التنكيل بهم «التقى بأسد قوى فتى، وإذا به يصارعه بدون سلاح، حتى إذا تمكن منه فسخه نصفين وألقى برمته على الأرض» (قضاة : ١٤).

وكارل ماركس الذى نشأ فى بيئة يهودية متعصبة، بنى فلسفته الماركسية على فكرة الصراع بين الطبقات، وذاعت الفكرة بسبب بريقها الخادع، وأدت إلى إبادة أعداد هائلة من البشر، ثم فشلت النظرية وانهار الاتحاد السوفيتى ومعه الكتلة الشيوعية انهيارًا مدويًا.

وفى التراث الأدبى والتاريخى اشتهر اليهودى بأنه مُرابٍ وأنه بخيل (تاجر البندقية) ومازالت هذه الصورة قائمة حتى الآن؛ فاليهود فى كل المجتمعات يعمدون إلى ناصية المال فيمتلكونها ثم يتحكمون فى مصادر الاقتصاد والثروة، ويقرضون المحتاجين بالفوائد، ويسيطرون على البنوك الربوية والبورصات وأسواق المال، وقد أكسبهم هذا الموقف كراهية وبغض المجتمعات التى عاشوا فيها ومارسوا إذلال أصحابها من هذه الناحية. ويتصل بذلك محاولتهم شراء الذمم بالمال والمتاجرة فى الأعراض وفى كل شيء، والاحتيال لكسب المال لتحصيل مزيد من السيطرة على السياسة والاقتصاد والإعلام.

«ولم يكن اليهود يرحمون المسيحى إذا تعامل معهم أيضًا، وكان سلاحهم هو إقراضه المال بالربا الفاحش، حتى إن البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨- ١٢١٦م أصدر أمرًا بأن يكون القرض الذى يأخذه المقاتل الصليبى من اليهود بدون فوائد، واليهودى المخالف يعاقب بالحرمان المطلق من التعامل مع المسيحيين، واتخذ هذا الأمر البابوى صفة القانون فى مجمع لاتران المقدس الرابع سنة ١٢١٥م. وتفنن اليهود

مع ذلك فى التلاعب بأرزاق المسيحيين وأموالهم، وكان لابد من التفكير فى طريقة يُعرف بها اليهودى من غيره فى المدن والأسواق، وظهرت فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر أوامر رسمية تفرض علامات مميزة على ملابس اليهود، وكان أشهر هذه العلامات "العجلة"، وهى حلقة يثبتها اليهودى على صدره، وقد سهّلت هذه العلامة تعرض اليهود للإهانة والعنف فى الطريق، حتى استنجدوا بالبابا غريغوريوس التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١م) الذى أمر بالتسامح معهم، وتجديد القوانين الرحيمة بهم التى صدرت فى عهد البابا أونوريوس الثالث والبابا إسكندر الثالث» (ظاظا ١٩٩٠).

ومن السمات المميزة للشخصية اليهودية: العنصرية والتعصب والاستعلاء والعزلة والشعور بالاضطهاد.. وسوف نفرد لهذه الصفات مواضع أخرى من الكتاب نظرًا لأهميتها.

واليهود اشتهروا فى التاريخ بأنهم قتلة الأنبياء؛ فعلى يديهم قُتل النبى يحيى عليه السلام وقُتل عيسى عليه السلام، وغيرهم كثير.

وهم قوم مشهورون بالجدال والمناورة، وقد ورد فى القرآن الكريم تصوير لهذه الصفات فى سورة البقرة حيث أمرهم الله أن يذبحوا بقرة فدخلوا فى جدال طويل مع نبى الله موسى حول شكلها ولونها وصفاتها.

ونقض العهود صفة أصيلة فى اليهود على مر تاريخهم، وتؤكده الأحداث اليومية حتى يومنا هذا، والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة يمكن الرجوع إليها بسهولة.

وبسبب هذه السمات وغيرها، صار اليهود مشكلة على مر التاريخ، والنصوص الدينية فى التوراة والإنجيل والقرآن تصور اضطراب علاقة اليهود بربهم وأنبيائهم والناس جميعًا فى مختلف العصور وتحت مختلف الظروف.

وقد رفعت إلى نابليون شكاوى كثيرة فى حق اليهود، وكان هذا سببًا فى انشغاله بالتفكير فى المشكلة اليهودية. فقد تقدم بالشكوى إليه وفد من المواطنين بالألزاس عند مروره بمدينة استراسبورج عائدًا من حربه فى أوسترليتز، يومى ٢٢، ٢٣ يناير ١٨٠٦م، وكان على رأسهم محافظ الإقليم "كيلرمان" وجميع وجهاء المحافظة، وقد ورد فى شكواهم من اليهود: «أنهم يغزون كل ميادين الوساطة التجارية والتجارة، ويخربون بيوت الفلاحين بالربا ونزع الأملاك ويخشى عما قريب أن يكونوا وحدهم المالكين للألزاس. وعلى أثر ذلك كتب نابليون إلى وزيره للشئون الدينية بورتاليس أمرًا بالدعوة إلى مؤتمر يهودى للبحث فى هذه المشاكل

وأمثالها، جاء فيه: وأشير من جديد إلى أنه لا أحد يشكو من البروتستانت ولا من الكاثوليك كالشكوى من اليهود، مما يبين أن الأذى الذى يرتكبه اليهود لا يأتى منهم كأفراد بل من وضع هذه الأمة نفسه، فهم حشرات وجراد يدمرون فرنسا» (Gyges, 1956).

ومع مرور الزمن وتفاعل هذه السمات مع الأحداث، أصبح للشخصية الصهيونية محددات وأنماط واضحة نستعرضها فيما يلى :

١ـ سمات الإله .. وسمات اليهود

إن لسمات الإله فى تصور أى شعب أثر كبير على سمات ذلك الشعب، فإذا كان هذا الإله فى تصورهم برًا رحيمًا عطوفًا... إلخ، انعكست هذه الصفات فى سلوك الشعب المؤمن به، وإذا كانت صفات الإله تتميز بالقوة والجبروت والقهر انعكست أيضًا هذه الصفات فى سلوك الشعب وأصبحت مُثلاً عليا يسعى إليها الناس؛ أما إذا كانت صفات الإله هى مزيج من هذا وذاك فإننا أمام احتمالين: الأول: أن تكون هذه الصفات تكاملية بحيث تجمع بين الجمال والجلال، وبالتالى تنعكس هذه الصفات التكاملية على المؤمنين بهذا الإله. الثانى: أن تكون هذه الصفات متناقضة، فيظهر هذا التناقض واضحًا فى سلوك الناس.

وفى العقيدة اليهودية نجد أن سمات الإله جاءت من مصدرين: المصدر الأول هو "آتون" ذلك الإله الذى دعا إخناتون إلى توحيده وعبادته، وقد خرج موسى عليه السلام ومن معه من مصر وهم يحملون عقيدة الإله "أتون"، وتقابلوا على حدود فلسطين مع مجموعة من القبائل يعتنقون ديانة جديدة هى عبادة إله البراكين "يهوه"، وتعاون الفريقان لفتح أرض كنعان، وبذلك كانت هذه القبائل العربية هى المصدر الثانى لتصور الإله عند اليهود. ولنرى كيف حدث ذلك من خلال كتابات فرويد عالم النفس الشهير، وهو يهودى متعمق فى دراسة أحوال اليهود التاريخية والنفسية. يقول فرويد:

«لقد توصل إدوارد مير إلى استنتاج مؤداه أن اليهود عند رجوعهم من مصر اتحدوا بقبائل كانت لهم بها تقريبًا صلات نسب فى المنطقة الواقعة على حدود فلسطين وشبه جزيرة سيناء وشبه الجزيرة العربية. وأنهم هناك فى بقعة خصبة اسمها قادش، وتحت تأثير قبائل مديان العربية، اعتنقوا ديانة جديدة هى عبادة إله البراكين يهوه، وبعد ذلك مباشرة كانوا مستعدين أن يفتحوا أرض كنعان» (فرويد ١٩٥٥).

«ومن المؤكد أن يهوه كان إلهًا بركانيًا... وبرغم كل التغيرات التى طرأت على نص التوراة نستطيع أن نعيد –تبعًا لمير– بناء الشخصية الأصلية للإله: إنه مارد مهلك متعطش للدماء يسير بالليل ويتجنب ضوء النهار» (فرويد ١٩٥٥).

«وربما لم يكن الإله يهوه الذى قاد إليه موسى المديانى شعبًا جديدًا، ربما لم يكن كائنًا عظيمًا بأى حال من الأحوال، فلقد كان إلهًا فظًا، ضيق العقل، محليًا، عنيفًا ومتعطشًا للدماء، وكان قد وعد أتباعه أن يعطيهم "أرضًا تفيض لبنًا وعسلاً"، وشجعهم على أن يخلصوا البلد من سكانه الحاليين بحد السيف» (فرويد ١٩٥٥).

هذه كانت صورة الإله عند اليهود خاصة أولئك المقيمن فى كنعان، وعندما قاد موسى اليهـود المصريـين فى عمليـة الخروج ووصلوا إلى كنعـان حدثـت هنـاك ازدواجية لصورة الإله فكما يقول فرويد: «ولجزء واحد مـن الشـعب أعطى موسـى المصرى تصورًا آخر أكثر روحية للإله، إله يحتوى كل العالم، إله هو كل الحب، كمـا هو كل القوة، يبغض كل الطقوس والسحر، ويضع حياة ملؤها الحق والعدل كهدف أسمى للإنسانية» (فرويد ١٩٥٥).

ولكن يبدو أن هذه الازدواجية فى تصور صفات الإلـه كـانت تتـأرجح فـى العصور المختلفة، ولكن صورة الإله يهـوه (الإلـه البركـانى الغـاضب البـاطش الـذى وعدهم الأرض وشجعهم على التخلص من سكانها بحد السيف) كانت أكثر حضورًا فى وجدان الشعب اليهودى، وهذا لا يمنع تمثل بعض فئاتهم للإله المحب القوى الذى بشّر به موسى.

ويصور فرويد هذا الصراع بين صورتى الإله فيقول: «إن الشعب -ربما بعد زمن قصير جدًا- نبذ تعاليم موسى، وحاز الإله يهوه شـرفًا لم يكـن يسـتحقه، ابتـداءً من قادش فما بعدها، عندما أضيف التحرير الذى قام بـه موسـى لشـعبه إلى حسـاب يهوه نفسه (الإله البركانى)، ولكن كان عليه أن يدفع ثمنًا غاليًا لهذا الاغتصاب، فظل الإله الذى احتل مكانه صار أقوى منه، وفى نهاية التطور التـاريخى ارتفـع أعلـى مـن كيانه كيان إله موسى المنسى. وليس بوسع أحد أن يشك أن فكرة هذا الإلـه الآخـر وحدها هى التى مكنت شـ ـب إسرائيل من أن يتغلب علـى كـل مصاعبـه وأن يعيـش حتى وقتنا» (فرويد ١٩٥٥).

وقـد أدى هـذا التصـور المزدوج للإلـه، بالإضافـة إلى الطبيعـة الجغرافيـة والتاريخية لشقى الشعب اليهودى (اليهود المهاجرين مـن مصـر مـع موسـى، واليهـود المقيمين فى فلسطين) إلى ثنائية فى التكوين اليهودى يعبر عنها فرويد بقوله : «وبهـذا أصل إلى نهاية، فقد كان غرضى الوحيد أن أطابق صورة موسى المصرى داخل إطـار التاريخ اليهودى، وربما أستطيع الآن أن أعبر عـن خـاتمتى بـأقصر صيغـة: إلى الثنائيـة المعروفة لذاك التاريخ -شعبان يندمجان مع بعضهما ليكوّنا أمة واحدة، مملكتان اثنتـان تنقسم إليهما هذه الأمة، اسمـان اثنـان للمعبـود فـى مصـدر التـوراة- نضيـف اثنـين جديدين: تأسيس ديـانتين اثنتـين جديدتـين، الأولى تنحيهـا الثانيـة ومـع ذلـك تعـاود الظهور منتصرة، مؤسسين دينين اثنين، يسميان بنفـس الاسـم، اسـم موسـى، وعلينـا أن نفصل بين شخصيتهما، وكل هـذه الثنائيـات نتـائج ضروريـة للنتيجـة الأولى: أن قسـمًا مـن الشـعب مـرّ بمـا يمكـن أن يسـمى تسـمية صحيحـة: تجربـة أذويـة Traumatic Experience أعفى الآخر منها» (فرويد ١٩٧٥).

وربما يفسر هذا وجود الصقور والحمائم في المجتمع الإسرائيلي الحالي، ويفسر أيضًا وجود قادة الحركة الصهيونية العالمية بتخطيطهم الشيطاني الضار بالإنسانية كلها، ووجود علماء ومفكرين يهود أثروا التاريخ البشري باكتشافات واجتهادات علمية كبيرة وبعضهم يرفض فكرة الصهيونية.

«ولو عدنا للعصور الأولى نستطيع أن نقول بجزم أن يهوه لم يكن أبدًا يشبه إله موسى، فقد كان أتون مسالمًا مثل رسوله الذي بشر به على الأرض -ومثل نموذجه الأرضي بمعنى أصح- الفرعون أخناتون» (فرويد ١٩٥٥).

وعن تطور سمات الإله بفعل الأحداث وأثر ذلك على سمات الشعب اليهودي يقول فرويد: «ولقد سبق أن ذكرت -وفي ذلك تؤيدني آراء آخرين- أن الحقيقة المركزية لتطور الديانة اليهودية كانت: أن يهوه فقد سماته الشخصية على مر الزمن وصار أكثر فأكثر مثل أتون إله موسى القديم، وبقيت الاختلافات، هذا حقيقي، وهي اختلافات تبدو هامة للوهلة الأولى، ومع ذلك فتفسيرها سهل. لقد بدأ أتون حكمه في مصر في فترة آمنة سعيدة. وحتى والإمبراطورية قد بدأت تهتز من أساسها، استطاع أتباعه أن يتحولوا عن المسائل الدنيوية وأن يواصلوا امتداح ما خلقه والاستمتاع به. أما الشعب اليهودي فقد قيض له القدر سلسلة من الامتحانات القاسية والتجارب المؤلمة، ومن ثم صار إلهه إلهًا صلبًا قاسيًا متدثرًا بالكآبة كما كان في الواقع، واستبقى صفة الإله العالمي الذي يحكم كل الأراضي والشعوب» (فرويد ١٩٥٥).

مما سبق نلمح صورة الصراع بين إلهين من أجل الوجود، ولكن في أغلب الأحيان يستطيع الإله البركاني الغاضب "يهوه" اغتصاب مكانة الإله الطيب أتون، ومن هنا نجد أن الصراع كامن في رأس العقيدة اليهودية وهي الإله، وهو ليس صراعًا يؤدي إلى تصالح وتكامل وإنما صراع يؤدي إلى إلغاء أحد الآلهة للآخر، أو على الأقل يحاول ذلك.

ولم تقتصر هذه الازدواجية على صورة الإله وإنما امتدت لتطال صورة موسى في الديانة اليهودية، فعلى الرغم من كونه نبيًا جاء يدعو للخير، فإن التصورات اليهودية قد أضفت عليه صفات مناقضة لذلك تمامًا. يقول فرويد: «ولسنا نرفض بالمثل أن كثيرًا من سمات اليهود التي أدمجت في تصورهم المبكر للإله، عندما جعلوه غيورًا ومتجهمًا ولا يسهل إرضاؤه، قد استمدوها أصلاً من ذكراهم لموسى، لأنه في الحقيقة لم يكن هو الإله غير المرئي الذي قادهم خارج مصر، بل كان الإنسان موسى.. وتضفي قصة التوراة نفسها سمات معينة على موسى، وهي تصفه

كإنسان غضوب حاد الطبع -مثلما فى حمأته يقتل ملاحظ العمال الفظ الذى أساء معاملة عامل يهودى، أو مثلما فى استيائه من مروق شعبه يحطم الألواح التى أعطاها له الله فوق جبل سيناء» (فرويد ١٩٥٥).

٢ - اليهود والأسطورة

تلعب الأسطورة دورًا فعالاً فى حياة اليهود إلى درجة أنها قد تصبح -بل أصبحت فعلاً- هى النواة النشطة التى يتشكل حولها النسيج الاجتماعى والثقافى والسياسى والدينى للمجتمع اليهودى. وهم لا يقنعون بأن تكون الأسطورة محور حياتهم هم فقط، بل إنهم يسعون لإقناع الآخرين بها ليجعلوهم يتصرفون وفق معطياتهم (كما حدث مع كثير من ذوى التأثير العالمى حين راحوا يرددون أساطير اليهود حتى فى أحاديثهم الرسمية).

وربما نتعجب ونتساءل: كيف يمكن أن يكون للأسطورة كل هذه القوة ؟.. وكيف لها أن تعيش وتظل نشطة ومؤثرة فى مجريات الأحداث بهذا الشكل ؟... وكيف يصدقها الناس ويعملون بوحى منها فى عصر العلم والتكنولوجيا ؟

والجواب ربما يحتاج لدراسات أكثر عمقًا وتحليلاً، ولكن يمكن القول بأن الأسطورة حين تتصل بالسمات الشخصية لشعب من الشعوب فإنها تظل نشطة طالما بقى هذا الشعب على قيد الحياة، لأنها -أى الأسطورة- تلبى حاجة مهمة لهذا الشعب وتلعب دورًا كبيرًا فى توازن شخصية الأفراد والمجتمع الذى نشأت فيه.

وإذا عدنا إلى بداية البداية نجد أن البناء اليهودى بأكمله قد قام على أسطورة بالغة الدلالة على الشخصية اليهودية وسماتها. فقد ورد فى التوراة قصة موجزها أن سيدنا يعقوب لقى رجلاً فى الليل عند جدول ماء فظل يصارعه حتى الفجر حتى تعب الرجل فقال له: أطلقنى فقد طلع الفجر. فقال: لا أطلقك إلا إذا باركتنى. فقال له: ما اسمك ؟ قال: يعقوب. فقال: لن يدعى اسمك يعقوب من بعد، بل "إسرائيل" لأنك صارعت الله والناس، وغلبت (التكوين ٣٢: ٢٤ وما بعدها). وكلمة إسرائيل تعنى "قوة الله"، وهى مشتقة من لفظتين ساميتين هما "أسر" بمعنى القوة، ولفظة "أل" أى "الله". وإذا قفزنا من البداية إلى النهاية نجد أن "شمشون الجبار" هو أحد أبطالهم الأسطوريين فى العصر الحديث، وقد نسجوا حوله القصص والملاحم وتغنى بها الناس إعجابًا وجهلاً، وبين الأسطورة الأولى والأسطورة المعاصرة هناك سجل حافل بالأساطير تشكل البناء الاعتقادى والسلوك اليومى لليهود.

ولنحاول الاقتراب أكثر لنرى كيف تمنح الأسطورة اليهود تعويضًا لمواطن الضعف الغائرة فى شخصياتهم، فمثلاً نرى أن اليهود يشعرون بقلتهم وضعفهم فتأتى السطورة لتمنحهم قوة فوق كل البشر بل وفوق الإله كما تزعم الأسطورة سالفة الذكر. ونجد أن اليهود فى شخصيتهم الشعور بالاضطهاد، لذلك فالأسطورة تمنحهم فكرة التفوق والاستعلاء. ولديهم شعور بالنبذ، لذلك فالأسطورة تمنحهم

فكرة اختراق النظم ومواقع التأثير. ولديهم شعور بالتهميش والتشتيت، لذلك فالأسطورة تدفعهم للتجمع فى فلسطين حيث ملتقى القارات والحضارات، وحيث عمق التاريخ ودفء الوجود الإنسانى وعمق تاريخ النبوءات. ولديهم شعور بالخوف لا يفارقهم، لذلك فالأسطورة تلح عليهم فى تحقيق الأمن ولو على حساب الآخرين. ومن هنا تنشأ صفات مثل "شعب الله المختار" أو "الشعب الأبدى" لتحل محل "اليهودى التائه".

وقد لازمت هذه الأساطير اليهود لأنها تحقق لهم توازنًا نفسيًا ربما لا يستطيعون الحياة بدونه، وإن كان هذا التوازن على المستوى المرضى. ولذلك حاولوا جاهدين أن يبثوا مفردات أساطيرهم فى العهد القديم وفى العهد الجديد وفى الكتب السماوية الأخرى أو تفسيراتها لكى يضمنوا بقاء هذه الأساطير واقتناع الناس بها على أنها كلام الله. وعندما عجزوا عن بث هذه الأساطير فى صلب القرآن وضعوها فى بعض التفاسير، وقد انتبه إليها المحققون وأطلقوا عليها اسم "الإسرائيليات".

وقاموا ببث هذه الأساطير فى كتب التاريخ والاجتماع والسياسة، بل وقاموا بكتابتها على أرض الواقع فى فلسطين، ولا يخجل علماؤهم وساستهم أن يضمنوا خطاباتهم وكتاباتهم تلك الأساطير على الرغم من أن الجو العام فى الحضارة المعاصرة قد تجاوز مرحلة تصديق الأساطير، بل وتصديق الأديان فى مجملها أحيانًا، ولكن مع هذا فاليهود لا يملون من المحاولة.

وعلى الرغم من أن الأسطورة تتيح بعض التماسك للمجتمع اليهودى، وتتيح فرصة تخويف الآخرين من قوة اليهود ومن سطوة اليهود وتحكم اليهود، وخطط اليهود وأسلحة اليهود، إلا أن البناء القائم على الأسطورة يظل هشًا وقابلاً للانهيار فى أى لحظة. والقارئ المتمعن للأحداث يرى أن المجتمع اليهودى قد واجه خطر الانهيار التام فى مواقف كثيرة على الرغم من ادعاءات القوة والهيمنة والسطوة. ففى حرب العاشر من رمضان تضعضع النظام اليهودى، وصرخت رئيسة الوزراء جولدا مائير فى هلع، ولولا الثور الأمريكى الذى دخل المعركة برأسه لانهارت تلك الدولة الطفيلية الهشة. وفى الآونة الأخيرة حين قُتل ستين يهوديًا فى عمليات التفجير فى القدس وغيرها، كادت أن تعصف بالدولة الإسرائيلية لولا الطمأنة والدعم العالمى لهذا الكيان الهش المدلل كى يبقى على قيد الحياة.

٣ - التشوّه الإدراكى

لما كانت الصهيونية قائمة على أساطير توراتية وغير توراتية، فإن ذلك جعل إدراك الإسرائيليين ضيقًا وذاتيًا ومشوهًا. فهو ضيق من حيث إنه لا يدرك الواقع وتفاعلاته ولا يدرك الآخر ومعتقداته واحتياجاته ومنطلقاته، وهو ذاتى لأنه شديد الخصوصية ووقف على غلاة اليهود وأصحاب الهوس الدينى فيهم، ولا يشاركهم فيه إلا قلة من أصحاب المصالح والأهواء من اليهود، وهناك كثير من عقلاء اليهود حذروا من هذا المنزلق الصهيونى الانتحارى، فها هو ذا العالم اليهودى الشهير "ألبرت أينشتاين" قد عبر عن رأيه فى شأن إقامة دولة إسرائيلية، وذلك فى عام ١٩٣٨، حيث قال: «فى رأيى فإنه من المعقول أكثر التوصل إلى اتفاق مع العرب على أساس حياة مشتركة ومسالمة، بدلاً من إنشاء دولة يهودية. وإن إحساسى الذاتى بالطبيعة الجوهرية لليهودية يصطدم بفكرة دولة يهودية لها حدودها وجيشها ومشروعها للسلطة الدنيوية مهما كانت متواضعة. وأخش من الخسائر الداخلية التى قد تتكبدها اليهودية بسبب قومية ضيقة فى صفوفنا» (جارودى ١٩٩٦).

وهذا مفكر يهودى آخر هو "مارتن بوبر" يعبر فى إحساس ما بين اليأس والفزع مما آل إليه حال المشروع الصهيونى فى أرض فلسطين وبعد قيام دولة إسرائيل بسنوات عدة، يقول بوبر: «إن الشعور الذى اعترانى منذ ستين عامًا عندما انضممت للحركة الصهيونية هو فى جوهره نفس الشعور الذى يعترينى اليوم.. لقد كان أملى ألا تتبع هذه القومية طريق الآخرين وأن تبدأ بآمال عريضة لكى لا تتردى بعد ذلك حتى تصبح نزعة أنانية مقدسة... عندما عدنا إلى فلسطين (!!) كان السؤال الحاسم هو: أتود أن تحضر هنا كصديق وكأخ، وكعضو فى مجتمع شعوب الشرق الأوسط أو كممثل للاستعمار والإمبريالية ؟!» (جارودى ١٩٩٦).

والإدراك الصهيونى مشوّه نظرًا لقيامه على أساطير أصابها التبديل والتحريف طبقًا لنوازع وأهواء قديمة ليس لها بالواقع صلة أو ارتباط، وهذه الأساطير مليئة بالتحريض العدوانى على الآخر (غير اليهودى).

ومما عمق من العنف الإدراكى لدى الصهاينة، هو تفسيرهم للعقيدة اليهودية، فقد حوّلوا العهد القديم إلى "فلكلور" الشعب اليهودى، وهو كتاب تفيض صفحاته بوصف حروب كثيرة خاضها العبرانيون ضد الكنعانيين وغيرهم من الشعوب التى أبادوا بعضها، وهو يفصل فصلاً حادًا بين الشعب اليهودى المقدس والأغيار (أى غير اليهود) بكل ما يتبع ذلك من ازدواجية فى المعايير تجعل الآخر مباحًا تمامًا، وتجعل استخدام العنف تجاهه مقبولاً (المسيرى، جريدة الأهرام ٢٠٠٠/١١/٧، ص١١).

واليهود قد وقعوا فى خطأ إدراكى جسيم حين قالوا بأن فلسطين أرض بلا شعب، والواقع اليومى يكذب هذه المقولة، فعلى الرغم من عملية الإبادة والتهجير لازال الشعب الفلسطينى قائمًا يطالب بأرضه بعد خمسين سنة من الاحتلال وأصبحت الانتفاضات الفلسطينية مصدر تهديد حقيقى للمستوطنات اليهودية التى زرعها اليهود كسكاكين فى الجسد الفلسطينى لتقتله ولكنها بدلاً من قتله وخزته فاستيقظ.

وإننا إذا ما حاولنا أن ننظر للواقع من خلال عيون مستوطن صهيونى يرى العالم من خلال هذه العدسات الإدراكية فسنجده يقول: إذا ظهر عربى على شاشة وعيى فإنه يتحدى خريطتى الإدراكية، المفروض أنه غير موجود، وإن تجاسر وطالب بحقوقه، فهذا دليل على جهله وتخلفه، ولابد من تلقينه درسًا، وإن بدأ يتحرك نحوى، أنا اليهودى عضو الشعب المختار وصاحب الحقوق المطلقة، فهذا يعنى أنه إنسان مجنون، وخطر لابد من القضاء عليه، فالعرب لا يفهمون سوى لغة القوة. هنا يتحول العنف الإدراكى إلى عنف فعلى مسلح، أى إلى إرهاب، فتنطلق الصواريخ والمدافع والطائرات لتصبح فلسطين أرضًا بلا شعب، أو أرضًا يقطنها شعب لا سيادة له يعيش داخل كانتونات تراقبه العيون الصهيونية المسلحة لتضبط حركته وتجعله يتحرك داخل حدود الإدراك الصهيونى، وحينما يطالب الصهاينة الفلسطينيين بالجلوس معهم على مائدة المفاوضات فهم يطلبون منهم ذلك وهم قابعون داخل إدراكهم الصهيونى فيعرضون عليهم سلامًا صهيونيًا حسب شروط صهيونية يضمن استسلام الفلسطينيين، فإن لم يقبل الفلسطينيون بالسلام-الاستسلام، فإن جيش الدفاع الإسرائيلى سيتحرك ليدك المنازل ويسويها بالأرض ليضمن أن الواقع الفلسطينى يتفق مع الإدراك الصهيونى له (المسيرى، جريدة الأهرام، ٢٠٠٠/١١/٧، ص١١).

ومن مظاهر اضطراب الإدراك الصهيونى تصورهم بأنهم قادرين على محو الجغرافيا والتاريخ المسلمين والمسيحيين واستبدالهما بخرائط وتواريخ يهودية، وأن ذلك يمكن أن يمر بسلام، ولم يستطيعوا رؤية استحالة ذلك تاريخيًا وحضاريًا وعقائديًا ونفسيًا، فهم الآن وإن شعروا بأنهم يحاصرون الفلسطينيين إلا أنهم فى ذات الوقت محاصرون من كل الجهات بشعوب عربية وإسلامية تمقتهم وتتحين الفرصة للانقضاض عليهم، وأنهم مهما حاولوا تزييف الواقع فإن الجسد العربى يرفضهم ويلفظهم، وأن محاولة اندماجهم فى المجتمع العربى بعد تغيير اسمه إلى مجتمع شرق أوسطى هى محاولة يقف دونها التاريخ وتقف دونها الجغرافيا وتقف دونها العقيدة وتقف دونها الطبيعة العنصرية للإسرائيليين.

٤ - شعب الله المختار

إن جميع البحوث الاجتماعية والتاريخية والأنثروبولوجية تؤكد أن اليهودى يعتبر من أبعد الجماعات البشرية عن النقاء العنصرى الذى يدّعيه، وفى ذلك يقول العلاّمة السويسرى أوجين بيتار: «إن جميع اليهود فى نظر علماء الأنثروبولوجيا، على الرغم مما يدّعيه اليهود المنضوون تحت الفكرة العنصرية الإسرائيلية، بعيدون عن الانتماء إلى جنس يهودى» (بيتار، ١٩٢٤).

وكما يقول رينان: «لا توجد سحنة يهودية، بل هناك عدّة سحنات يهودية». وليس هناك أصح من قوله هذا، فنحن لا نستطيع أن نعتبر اليهود الحاليين مكوِّنين لكتلة بشرية ذات عنصر واحد، ولا حتى فى فلسطين، بعد أن جرَّت إليها الحركات الصهيونية كثيرًا من الإسرائيليين دون اختيار أو تمييز. فاليهود ينتمون إلى طائفة دينية واجتماعية، اندمج فيها فى كل عصور التاريخ أشخاص من أجناس متباينة، وكان أولئك المتهودون يدخلون فيها من جميع الآفاق المسكونة بالبشر، من اليهود الأحباش -الفلاشة- إلى اليهود الأشكناز -من الجنس الجرمانى-، إلى التاميل -اليهود الأفارقة الزنوج-، إلى اليهود الهنود الذين يسمّون بنى إسرائيل، واليهود الخَزَرْ الذين ينتمون إلى الجنس التركى. فهل هناك من هذه الأنواع الإسرائيلية نوع يعتبر من ناحية التشريح والتحليل ممثلاً حقيقيًا ونقيًا للجنس اليهودى ؟... ويستمر عالم الأجناس السويسرى فى تحليل كل نوع من الجاليات اليهودية فى العالم، من حيث القامة والجمجمة والهيكل العظمى والتقاطيع ولون البشرة والشعر والعينين وشكل الأنف وغيرها من المميزات البيولوجية، ليخرج بنتيجة حاسمة، وهى أن الدعوى العنصرية التى يجاهر بها اليهود من ناحية وأعداء اليهود من ناحية أخرى ليست إلا ادعاءً خرافيًا من نسج الخيال (ظاظا ١٩٩٠).

وقد اتصل الشعب العبرانى -منذ عهد إبراهيم خليل الله إلى أن قامت لهم دولة وإلى أن أعيدت لهم دولة حديثة- بأمم عديدة وامتص كثيرًا من عاداتهم وتقاليدهم الدينية، وامتزج أيضًا بهم بالمصاهرة وغير المصاهرة، فلم تبقَ ديانتهم نقية خالصة كما تركها أنبياؤهم، ولا دماؤهم نقية كما يدعون وكما يتوهم بعض الناس (شلبى، ١٩٩٧).

ومع هذا، فإن الاعتقاد الخرافى يشكل مرجعية معرفية وعقائدية لدى اليهود تتشكل على أساسها سلوكياتهم مع بقية البشر، وهم يستخدمون هذه المفاهيم الخرافية للإبقاء على تماسكهم وترابطهم عبر المراحل التاريخية المختلفة... وقد اكتشف اليهود أن هذه المعتقدات -على الرغم من جلبها لكراهية الآخرين لهم-

كانت تضمن لهم البقاء ومقاومة عوامل الإبادة والفناء، حيث عاشوا منذ السبى البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد، والتشريد الرومانى منذ القرن الأول الميلادى، يصارعون عوامل الفناء. وكانوا يعبرون عن هذه المعتقدات الخرافية بألفاظ مثل: أبناء الله.. أحباب الله.. حلفاء الله.. وبأن الله لن يعذبهم.. وأن بقية البشر مسخرين لخدمتهم.. وأنهم الأقوى والأصلح.

«إن اعتقاد اليهود فى اختيار الرب لهم ليس مجرد مفخرة يتشدقون بها، بل هو برنامج، فيهم يعاقب الله الأمم الأخرى، وهم الذين يبقون وحدهم فى آخر الزمان، متسلطين على رقاب العالم، وهم باختصار الذين يلعبون دور البطولة على هذا المسرح الهائل، مسرح التاريخ، والأمم الأخرى ليست إلا أشخاصًا ثانوية خلقها الله لتكملة مشاهد هذه المسرحية الطويلة وحوادثها، على نحو تظل فيه البطولة لإسرائيل. ومن هنا تبرز خطورة النفسية الإسرائيلية على أمم العالم، ويتضح مدى احتياجها لعلاج ناجع -لابد أن يكون مرًا- حتى تصحو من غرورها لتندمج فى أمم هذا العالم.. والداء الذى نشير إليه مزمن عند القوم. ففى مصطلحاتهم نجدهم يسمون أنفسهم أيضًا "الشعب الأزلى" -بالعبرية: عام عولام- كما يسمون أنفسهم "الشعب الأبدى" -بالعبرية: عام ينصح- وهكذا تطاولوا على الرب -ولو مجازًا- فتخيلوا أنهم يشاركونه فى أزليته وأبديته، وأنهم مثله لا أول لهم ولا آخر، ولا بداية ولا نهاية. وهو قول كبير، أحس بعض مفكريهم بفداحته، ففسروه على أنهم من أقدم شعوب العالم، وهو المقصود بالأزلية، ومن أدوم شعوب العالم، وهو المقصود بالأبدية. وهى دعوى خرافية حتى بعد هذا التخفيف الشديد، فاليهود كما يعلم الجميع ليسوا أقدم من الفراعنة، ولا من سومر وبابل وأشور، ولا من الهنود أو الصينيين ولا من العرب، وهم أيضًا ليسوا أطول دوامًا من كثير من تلك الأمم» (ظاظا ١٩٩٠).

ولم يسلم من الإيمان بهذه الأسطورة عالم مثل فرويد يدّعى الموضوعية ويتظاهر بالإلحاد ويحاول أن يفسر كل الظواهر الدينية على وجه العموم تفسيرات نفسية جنسية، إلا أنه حين يتعرض للتاريخ اليهودى وللمعتقدات الدينية، نجده يتحدث كحاخام يهودى وينسى تحليليته وحياده العلمى ويتورط فى الإيمان بالفكر الخرافى والأسطورى، ولنأخذ بعض الأمثلة من أقواله للتدليل على هذا الاتجاه. يقول فرويد: «إن موسى نزل إلى اليهود، جعلهم شعبه، إنهم شعبه المختار» (فرويد ١٩٥٥).

ويقصد فرويد من شعبه المختار هنا أن موسى والإله كليهما لم يكونا من

شعب اليهود، وأن موسى والإله كليهما كان غريبًا على اليهود، وحيث إن موسى قد ترك شعبه المصرى وبشر اليهود بدينه الجديد، فلقد صار اليهود شعبه المختار أى الذى اختاره بديلاً عن شعبه المصرى (الحفنى ١٩٧٣).

ويحاول فرويد أن يعيد كتابة التاريخ القديم من منظور يهودى دون أن يكون لديه القدر الكافى من التوثيق التاريخى، والهدف النهائى لذلك هو تدعيم فكرة "الشعب المختار"، فهو يذهب إلى أن موسى ربما كان من أتباع إخناتون، ولما فشلت دعوة إخناتون فى مصر حملها موسى إلى خارج مصر بتأييد من اليهود. ولنقرأ ما قاله فرويد:

«وربما كان هناك رجل من خلصاء إخناتون يدعى توتمس (Thothmes) كما كان يدعى الكثيرون فى ذلك الوقت (وقد كان هذا الاسم كما يقول فرويد فى الحاشية هو اسم المثّال الذى اكتشف مرسمه فى تل العمارنه) ولا يهم الاسم ولكن الجزء الثانى من اسمه لابد كان موسى Mose، وكان يشغل منصبًا كبيرًا، وكان من المؤمنين المقتنعين بديانة آتون، ولكنه كان على نقيض الملك المتأمل، كان ذا قوة وعاطفة متدفقة، وكان موت إخناتون والقضاء على ديانته يعنى بالنسبة لهذا الرجل نهاية كل آماله، ولم يكن يستطيع أن يبقى فى مصر إلا منفيًا أو أن يرجع عن دينه وينكره. وإذا كان حاكمًا لإقليم من أقاليم الحدود فمن المرجح أنه اتصل بقبيلة سامية معينة كانت قد هاجرت من بضعة أجيال، وتحول فى يأسه وفى وحدته إلى أولئك الأغراب وبحث فيهم عن تعويض لما كان قد فقده، واختارهم ليكونوا شعبه، وحاول أن يحقق من خلالهم مثله، وبعد أن غادر مصر معهم، يصحبه أتباعه الملاصقون، باركهم بختانهم ومنحهم الشرائع، وبشّرهم بديانة آتون التى كان قد نبذها المصريون توًا» (فرويد ١٩٥٥).

«ونحن نعرف أنه من بين كل الشعوب التى عاشت فى الزمن القديم فى حوض البحر الأبيض، ربما كان الشعب اليهودى هو الشعب الوحيد الذى مايزال يوجد له اسم، وربما كذلك طبيعة ؟ فلقد تحدى سوء الطالع وسوء المعاملة بقوة لا مثيل لها فى المقاومة، واكتسب صفات خاصة، واكتسب بشكل عارض الكراهية القلبية لكل الشعوب، وإن الإنسان ليحب أن يفهم فهمًا أكثر وعيًا من أين جاءت هذه المقاومة التى يتحلى بها اليهودى، وكيف يرتبط تكوينه الخلقى بمصيره. وقد نبدأ من صفة خلقية لليهود تحكم علاقتهم بالشعوب الأخرى، ولا شك أن اليهود يحتفظون بفكرة عالية عن أنفسهم، ويعتقدون أنهم أنبل من غيرهم، وعلى مستوى أعلى، وأكثر تقدمًا من الآخرين الذين تفصلهم عنهم عادات كثيرة لهم (وينبغى قراءة

الإهانة التى كانوا يتقدمون بها كثيرًا فى العصور القديمة بأنهم مجذومون باعتبارها إسقاطًا معناه "إنهم يبتعدون عنا كما لو كنا مجذومين". وبالإضافة إلى ذلك فإن ثقة خاصة بالحياة تملأهم، كالتى يضفيها الامتلاك الغامض لموهبة، وهى نوع من التفاؤل يطلق عليه المتدينون "الثقة فى الله". ونحن نعرف سبب مدافعتهم ذاك، وما هو كنزهم الثمين، فهم يصدقون فى الواقع ما يقولونه عن أنفسهم من أنهم شعب الله المختار، ويؤمنون بأن الله قد قربهم منه بصفة خاصة، وهذا هو ما يملأهم فخرًا وثقة. وتقول كتب التاريخ الموثوق بها إن اليهود كانوا يتصرفون فى أيام الرومان واليونان مثلما يتصرفون الآن، فالطابع اليهودى لذلك كان حتى فى ذلك الوقت مثلما هو الآن، ولقد قابل الإغريق الذين عاش اليهود بينهم ومعهم الخصائص اليهودية بنفس الطريقة التى يقابلها بها "مضيفوهم" اليوم، ولقد يظن المرء أنهم تصرفوا كما لو كانوا هم أيضًا يعتقدون فى الأفضلية التى يدعيها الإسراليليون لأنفسهم، فعندما يقال إن أحد الناس هو الابن المفضل للأب المرهوب الجانب فلا حاجة إلى إبداء الدهشة من غيرة إخوته الآخرين وأخواته. ويبدو أن المجرى الذى اتخذه تاريخ العالم يبرر هذا الغرور اليهودى، لأن الله عندما وافق فيما بعد على أن يرسل مسيحًا ومخلصًا إلى البشرية، اختاره مرة أخرى من بين الشعب اليهودى، وكان يحق للشعوب الأخرى حينئذ أن تقول: إنهم على حق فعلاً؛ إنهم شعب الله المختار. وحدث بدلاً من ذلك أن الخلاص عن طريق يسوع المسيح لم يجلب على اليهود إلا كراهية أقوى، بينما لم يستفد اليهود أنفسهم من هذا البرهان الثانى على إيثار الله لهم، لأنهم لم يعترفوا بالمخلِّص» (فرويد ١٩٥٥).

٥ ـ عقدة الاضطهاد

ربما كان أقرب مدخل للشخصية اليهودية هو مدخل عقدة الاضطهاد التى حملوها معهم منذ نشأتهم المبكرة، وبدلاً من علاجها بفعل الأحداث أو بفعل الزمن أو بفعل محاولات الحكماء منهم ومن غيرهم، فإن هذه العقدة كانت تكبر وتتضخم عبر العصور وتنطلق منها سلوكيات مميزة لليهود منها الحذر والتوجس والعزلة والعدوانية ومحاولة السيطرة على مراكز القوة فى المجتمعات والاحتيال والخداع...إلخ.

وحين تذكر كلمة الشتات يتبادر إلى الذهن الشعب اليهودى، فقد كان سلوكه يدفع الأمم الأخرى إلى تشتيته فى الأرض، ولا نستطيع أن نوجه اللوم إلى كل شعوب الأرض على مر العصور حين كانت تسلك هذا المسلك مع اليهود ولكننا نستطيع بسهولة أن نتلمس دور اليهود فيما يحدث لهم، وهذا أشبه بالنظرية التى تقول بأن للضحية دورًا هامًا فيما حدث لها، وهذا الدور تلعبه الضحية بشكل واعٍ أو غير واعٍ فتدفع الجانى إلى الإتيان بفعله تجاه الضحية.

ولسنا هنا بصدد سرد وقائع تاريخية لاضطهاد اليهود وتشتيتهم عبر التاريخ، فهذه وظيفة الكتب التاريخية، وإنما يعنينا هنا الجانب النفسى فى الأحداث الذى نحن بصدده فى هذا الكتاب، وإذا عرضنا لبعض الأحداث التاريخية نستعرض لها بشكل موجز وعابر لاستخلاص العبرة.

والشتات ظاهرة كثيرة الوقوع فى تاريخ اليهود، حتى قبل ظهور هذه الكلمة. والحقيقة أن اليهود قد تصوروا وضعًا طبيعيًا لكيانهم كان فى جوهره منافيًا للطبيعة، وبنوا على هذا التصور كل شعورهم بالاضطهاد، فكم من قوم يتبعون دينًا واحدًا وليسوا من أصل واحد، ولا يطالبون بوطن واحد. فالإسلام والمسيحية والبوذية مثلاً تضم مؤمنين بتلك الشرائع من جميع الأعراق والأوطان. لكن حدث أن استطاع اليهود فى فترة قصيرة من تاريخهم أن يتجمعوا فى أرض لم تكن لهم، هى فلسطين، التى تقول عنها التوارة نصًا : «وسكن يعقوب فى أرض غربة أبيه، فى أرض كنعان» (التكوين ٣٧: ١)، ثم يتحول تجمعهم هذا إلى مملكة قصيرة الأجل، تعاقب على عرشها شاؤل وداود وسليمان فى مستهل الألف الأولى قبل الميلاد. ثم راحت هذه المملكة تضمحل، إذ انقسمت إلى مملكتين صغيرتين ضعيفتين بعد موت سليمان مباشرة، ولم يكن من المتصور سياسيًا أو اجتماعيًا أن يبقى هذا الكيان الغريب فى فلسطين، وأن يقاوم الفراعنة والآشوريين والكلدانيين. كانت إحدى هاتين المملكتين -وتدعى إسرائيل- تشغل منطقة كبيرة فى شمال فلسطين، وتتخذ لها

هناك عاصمة هي السامرة في قضاء نابلس.. أما الأخرى فكانت مملكة يهوذا، في جنوب البلاد بعاصمتها "أورشليم". وزالت المملكة الأولى سنة ٧٢٠ ق.م عندما انقضت عليها الجيوش الآشورية وقد فرض عليهم الشتات عُلى أثر الهزيمة... أما المملكة الثانية فزالت سنة ٥٨٦ق.م على يد بختنصر الكلداني، وقد ضرب عليهم نوع آخر من الشتات؛ إذ نقل الكلداليون كل من له قيمة في جماعتهم إلى العراق -أرض بابل- حيث فرضت عليهم إقامة إجبارية، تقول الروايات إنها حول موضع كان في العراق اسمه "تل أبيب" على نهر الخابور (حزقيال ٣: ١٥). وقد حرصت الصهيونية الحديثة على الإبقاء على نار الحقد اليهودى منذ هذا الحادث الذى يسمى في تاريخهم "السبى البابلى" فسمت معقل الصهيونية الأكبر في فلسطين "تل أبيب" أيضًا (ظاظا ١٩٩٠).

وبعد سبعين سنة من السبى البابلى احتال اليهود على قورش الأول في إيران وساعدوه كي يؤسس إمبراطوريته على أنقاض الإمبراطورية الكلدانية المتهالكة... وأعطاهم في المقابل وعدًا بالعودة إلى فلسطين يشبه وعد بلفور في العصر الحديث.

وفى سنة ٧٠ ميلادية تنبه الإمبراطور الرومانى "فسبازيان" إلى تآمر اليهود وخيانتهم فأرسل من الإسكندرية جيشًا كبيرًا يقوده ابنه "تيتوس" فدمر الكيان اليهودى الضئيل المشاغب... ومن هذا التاريخ تفرق اليهود في العالم كله.

وقد واكب هذا انتشار الدين المسيحى في فلسطين وانتشر إلى ما حولها واعتنق الإمبراطور الرومانى قسطنطين الأول المسيحية، وحين علم بعودة اليهود سرًا إلى فلسطين ونبهه عدد من القديسين وآباء الكنيسة الأقدمين (فى مجمع نيقية المسكونى الأول سنة ٣٢٥ ميلادية) إلى جرم اليهود وتآمرهم على حياة المسيح، أصدر مرسومًا بإغلاق مدارسهم التلمودية في فلسطين... ولكن اليهود استمروا فى ممارسة نشاطاتهم السرية.

وهكذا كانت الفترة من ٧ إلى ٣٣٠ ميلادية مرحلة انتقال لليهود من فلسطين إلى الشتات بصور مختلفة، انتهت بتضافر القوة الرومانية مع العقيدة المسيحية في الضغط على اليهود. وأخيرًا أخذ هؤلاء اليهود يتفرقون ويمعنون فى البعد عن مراكز الاضطهاد إلى أبعد ما استطاعوا الوصول إليه من بلاد العالم، حيث عاشوا في هذا الشتات تتضخم فى نفوسهم عقدة الشعور بالاضطهاد، ويتضخم معها الحقد على أمم العالم، فلا يبقى لهم حل بعد ذلك إلا العزلة التى ألقت بهم فى النهاية فى "الجيتو" (ظاظا ١٩٩٠).

وحين ظهر الإسلام فى الجزيرة العربية واتخذ من المدينة المنورة قاعدة

للانطلاق كانت توجد ثلاث قبائل يهودية فى ذلك الوقت هم : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، وكانوا يعيشون على الربا وتجارة السلاح وبث الفرقة بين أكبر قبيلتين يقطنان يثرب وهما الأوس والخزرج اللذين قامت بينهما حروب كثيرة بسبب الدس اليهودى.

وحين بدأ المجتمع المسلم يتكون وتقوى شوكته شعر اليهود بالقلق، وبدلاً من الاندماج فى المنظومة الاجتماعية الجديدة راحوا يحاولون تفتيتها بإثارة النزعات القبلية والعرقية والدينية، ولكن المجتمع الإسلامى الناشئ كان عصيًا على تلك المؤامرات. وعقد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم معاهدة للتعايش السلمى المنظم فى مجتمع المدينة، ولكن اليهود لم يحترموا نصوص هذه المعاهدة وراحوا يتآمرون فحاولوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم بإلقاء حجر من أعلى الحصن على رأسه أو بتهديد الوئام الاجتماعى الناشئ فى المدينة، وأخيرًا كان التآمر الأكبر فى غزوة الأحزاب حيث همّ بنو قريظة بالخيانة وذلك باتفاقهم على السماح لجيش قريش أن يدخل من ناحيتهم، ولكن هذه المؤامرة أحبطت بشكل خارج عن إرادة اليهود، وكان نتيجة كل هذه الأحداث إجلاء بنى قينقاع وبنى النضير عن المدينة، وقتل رجال بنى قريظة وسبى نسائهم وأطفالهم. ولم تتوقف مؤامراتهم بل ذهبوا وتجمعوا مرة أخرى فى خيبر وتحصنوا بالحصون وراحوا يدبرون المكائد للمجتمع المسلم فلم يكن هناك بد من محاصرتهم فى حصونهم حتى سلّموا ودفعوا الجزية.

وعلى الرغم من كل ما حدث، فقد استطاع اليهود العيش فى سلام فى المجتمعات الإسلامية ومارسوا عباداتهم وكل نشاطات حياتهم فى حرية لم ينعموا بها فى أى عصر من العصور، حيث إن مبادئ الإسلام كانت تعطى حرية الاعتقاد والعبادة، ولا تفرق بين الناس بسبب الدين أو العرق أو اللون ﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾، «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى». وهكذا استطاع اليهود أن يتنقلوا فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية التى أخذت فى الاتساع حتى وصلت إلى أوربا، وذهب اليهود إلى أوربا عن طريق الأندلس وزادت أعدادهم هناك بسبب الحرية التى تمتعوا بها فى ظل الدولة الإسلامية. ولكنهم لم يكفوا عن تآمرهم ضد المواطنين المسيحيين، وتسبب ذلك فى سخط المجتمع المسيحى عليهم.

ثم جاءت الحروب الصليبية فألهبت نار هذا السخط بحيث كثرت حوادث اعتداء الصليبيين على التجمعات اليهودية الواقعة فى طريقها.. واشتدت العداوة بين اليهود والمسيحيين الألمان، وكان من مظاهرها الإفراط فى فرض الغرامات والإتاوات على بعض الجاليات الإسرائيلية هناك، وشجع هذا المحاربين الصليبيين على التنكيل

باليهود، وتكرر الاعتداء عليهم إبان الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة مما سجله كاتب يهودى معاصر لتلك الفترة، هو أفرايم بن يعقوب من مدينة بون الألمانية توفى حوالى سنة ١٢٠٠م (Max & Alexander 1930).

وكان اليهود فى المقابل لا يرحمون المسيحى عند التعامل معه، فكانوا يستغلون حاجته فيقرضونه المال بالربا الفاحش، وإذا عجز عن السداد سلبوه بيته وجميع مقتنياته، ولذلك تعمقت صورة اليهودى المرابى المستغل، وبسبب ذلك صدرت أوامر رسمية بأن يضع اليهود حلقة على صدورهم لكى تميزهم، وكانت هذه العلامة على صدورهم مدعاة لتعرضهم للإهانة والعنف حتى استنجدوا بالبابا فأمر بالتسامح معهم.

ومع ذلك فقد أحس اليهود بأن المجتمع الأوربى قد لفظهم، فآثروا السكنى فى أحياء وحارات خاصة بهم، كانت تسمى "حى اليهود" أو "حارة اليهود" أو "اليهودية" فقط. وكانت هذه المستوطنات شديدة الزحام كثيرة القذارة، تنتشر حولها الأقاويل الساخرة الحاقدة. إذ كان الناس يعتقدون أنها مأهولة بالسحرة والمشعوذين، وأن العفاريت تسكنها مع اليهود. بل إن الرسامين فى تلك الفترة تعودوا أن يرسموا اليهودى على شكل الشيطان، له قرنان، وذنب يتدلى وراء قفطانه، وقد يكون له طرف مدبب مثل سنان الرمح (Cecil 1953).

وانتشرت كذلك منذ تلك الأزمنة "تهمة الدم" التى تنسب إلى اليهود ذبح بعض المسيحيين وخلط دمهم بخبز عيد الفصح، وهى تهمة سرت فى كل أنحاء العالم، وظلت تنبثق شرقًا وغربًا حتى مشارف القرن العشرين (Albert 1914). وبعد أحداث ساخنة بسبب هذا الموضوع مات فيها الكثير من اليهود بسبب هجوم جموع المسيحيين عليهم، اضطر الإمبراطور فردريك الثانى (١٢٢٠ - ١٢٥٠م) إلى تخصيص حى مغلق يسكن فيه اليهود وحدهم تأمينًا لهم، وتجنبًا للاضطرابات.

وفى رأى كثير من مؤرخى اليهود أن هذا الحى كان يسمى بالإيطالية "بورجيتو" أى القرية الصغيرة، ثم تآكلت اللفظة مع الاستعمال، فلم يبقَ منها إلا آخرها "جيتو" الذى انتشر ليصبح اسمًا لكل الأحياء اليهودية المماثلة فى أوربا (ظاظا ١٩٩٠).

وتوالت أحداث التنكيل باليهود بسبب سلوكياتهم العنصرية العدوانية بعد ذلك، وكان آخرها تنكيل هتلر بهم فى الحرب العالمية الثانية، تلك الأحداث التى ضخّمها اليهود ليحصلوا على تعاطف العالم معهم وليستصدروا القوانين التى تحميهم -حسب زعمهم- من اضطهاد المتعصبين ضدهم.

وراح اليهود بعد ذلك يحدثون إسقاطًا وإزاحة للصفات الكريهة التي التصقت بهم على المسلمين، فتحركت آلات إعلامهم الضخمة في كل مكان وراحت تستغل كل حادث لتلصق بالمسلمين صفات العدوان والإرهاب والتآمر والعنف والقذارة والخداع... إلخ. وقد وقع البعض في هذا الفخ، فراح يصدق هذه الصورة النمطية التي ألصقها اليهود بالعرب والمسلمين.

٦ ـ العزلـــة

منذ القدم واليهود يفرضون على أنفسهم عزلة شديدة قائمة على التزمت والتعصب الديني والعنصري، ورفض الاندماج في الأمم الأخرى، ومع استمرار العزلة تزداد الأفكار النرجسية الأسطورية "شعب الله المختار".. "الشعب الأبدي".. "الشعب الأزلي".. "الشعب المقدس"، ويزداد توجسهم ممن حولهم وتوجس الناس منهم، وشيئًا فشيئًا تزداد العداوة المتبادلة بينهم وبين غيرهم فيحاولون هم تقوية أنفسهم على اعتبار أنهم أقلية منبوذة فيعمدون إلى مراكز السلطة والمال والإعلام محاولين السيطرة على المجتمع، وحين ينتبه المجتمع المحيط بهم بهذه النوايا التسلطية يبدأ في حصارهم... وهكذا حلقة مفرغة تؤدي في النهاية إلى استمرار العزلة وزيادتها. وكما يحدث على مستوى الأفراد يحدث أيضًا على مستوى الجماعات، فمع العزلة تنمو الأفكار المرضية والمشاعر المرضية والسلوكيات المرضية، وهذا ما نلحظه بوضوح حيث تنمو الأفكار العنصرية والمشاعر العدائية في حارات اليهود وفي الجيتوهات وفي المستعمرات والمستوطنات.

واليهود يميلون لأن يضربوا حول أنفسهم سياجًا من السرية حتى لا تعرف الأمم عنهم شيئًا إلا ما يسمحوا هم بالاطلاع عليه. وكان العهد القديم العبري (أي أسفار التوراة الخمسة، وكتب الأنبياء، وأسفار المأثورات الحكمية) تعتبر عندهم من الأسرار التي يجب ألا تتسرب إلى الجوييم. فلما قام أتباع السيد المسيح بإبلاغها إلى غير بني إسرائيل، بلغاتهم، فكر اليهود فورًا في إنشاء مستودع فكري وديني آخر خاص بهم، ومن هنا نبتت فكرة الشريعة الشفوية (المشنا) وتفاسيرها الخاصة (التلمود)، وأعطيت عندهم نفس الدرجة من القدسية التي لتوراة موسى، بل أكثر، حتى تستمر في داخلها عزلتهم عن العالم، ورفضهم الانفتاح على شعوبه (ظاظا ١٩٩٠).

وتجسيدًا لهذا السلوك الانعزالي كان اليهود يبنون الحصون ذات الأسوار العالية لتكون لهم سكنى وحماية، ويتحوصلون في بؤر خاصة بهم ويقاومون الاندماج مع غيرهم أو الانفتاح على المجتمعات الأخرى، حتى معابدهم كانت أشبه بالقلاع الحصينة يبنونها على قمم الجبال ولا يسمحون لأحد بدخولها على عكس دور العبادة في الأديان الأخرى التي ترحب بكل إنسان يريد أن يتقرب إلى الله. ومن المفارقات أن اليهود لم يهتموا بدعوة الآخرين لدينهم، بل كانوا يتوجسون ممن يقترب منهم حتى ولو عن طريق الدين الذي يفترض أنه دعوة لهداية البشر دون تمييز.

ونتيجة لهذا السلوك أصبح اليهودي في النهاية -ظالمًا أو مظلومًا- شخصية

مشبوهة كريهة فى كل المجتمعات، ورأيناه فى أوقات كثيرة محرومًا من حق امتلاك الأرض وزراعتها، واستخدم العمال غير اليهود، وأخيرًا من السكنى فى داخل الجماهير، وممارسة الصناعة والتجارة بأمن وحرية. فلم يبق والحالة هذه من مصدر للرزق إلا ما تشمئز منه الفضائل الدينية من أعمال، كالربا والصيرفة وبعض الحرف الشاقة أو القذرة كدبغ الجلود، واستخراج الملح، وتقديد الأسماك وسبك المعادن والصباغة، إلى جانب ألوان من الاحتيال وراء ستار السمسرة أو ألعاب القمار والمراهنات. وقد ضاق كثير من المصلحين اليهود بمثل هذا النمط من المعيشة، ووصفوا الذين يأخذون به بأنهم من "رجال الهواء" أى الذين يعيشون بلا ركيزة ولا أساس ويمكن للمجتمع أن يستغنى عنهم (ظاظا ١٩٩٠).

وحين تآمروا لإقامة وطن لهم فى فلسطين بعد عصور طويلة من العزلة والشتات، جاءوا ومعهم هذه الصفة المرضية فبنوا المستعمرات المعزولة (المسماة خطأً بالمستوطنات) ووضعوا الحواجز فى كل مكان بينهم وبين الفلسطينيين أصحاب الأرض الأصليين وأثاروا عداوة المحيط البشرى العربى من حولهم وتوهموا أنهم يستطيعون بذلك العيش فى سلام بفرض منطق القوة والهيمنة، على الرغم من استحالة هذا فى نظر أى عاقل لديه ولو قدر ضئيل من تقييم الأمور بشكل منطقى، ولكنه السلوك النمطى المتكرر بشكل مرضى لدى اليهود يدفعهم إلى الانتحار فى كثير من مراحل التاريخ وهم لا يعون الدرس أبدًا من خبراتهم السابقة ويعاودون نفس السلوك الانتحارى مرة بعد مرة ثم يدعون أنهم مضطهدون من باقى الأمم.

ولقد انتبه بعض مفكريهم إلى أن أرض فلسطين تتحول مع الوقت إلى جيتو ضخم لليهود (تحت وهم الوطن القومى) وإلى مصيدة يضع فيها اليهود أنفسهم بأنفسهم لكى يغرقوا فى النهاية بفعل الطوفان البشرى والحضارى العربى والإسلامى أو بفعل تغير موازين القوى الدولية وعلاقات المصالح فى يوم من الأيام، ولكن للأسف الشديد ضاعت أصوات هؤلاء المفكرين سدى ومضى دعاة الصهيونية فى غيّهم يندفعون نحو الهاوية.

وقد كان أمام اليهود فرصة تاريخية للخروج من عزلتهم لأول مرة فى تاريخهم الطويل، فقد حدث تغير كبير فى القرن العشرين بعد الثورة الفرنسية فى فرنسا وثورة تحرير العبيد فى أمريكا، فقد أصبح العالم يتجه نحو رفض العنصرية والتمييز والاضطهاد بشكل أفضل من ذى قبل (على الأقل فى التاريخ الغربى)، وقد سهل هذا لليهود اندماجهم فى المجتمعات الأوروبية والأمريكية وفتح لهم أبوابًا هائلة لم يحلموا بها فى يوم من الأيام، غير أن اليهود لم يستطيعوا التخلى عن سماتهم

الانعزالية العنصرية التى تجاوزها الزمن فراحوا يعقدون لقاءاتهم المغلقة ويؤسسون كيانات سرية مشبوهة مثل الماسونية وكأنهم يرفضون حركة التاريخ حتى ولو كانت لصالحهم.

وليست هذه هى المرة الأولى التى يرفض اليهود الاستفادة من الفرص المتاحة لهم للعيش بسلام مع المجتمعات من حولهم، فقد رفضوا ذلك التعايش فى المدينة المنورة حين أبرمت معاهدات بينهم وبين المجتمع الإسلامى الناشئ بقيادة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وآثروا الاستمرار فى السلوك العدوانى المتآمر مرة بعد مرة (بنو قينقاع ثم بنو النضير ثم بنو قريظة ثم خيبر) بشكل أجبر المجتمع فى النهاية على نبذهم بعد فشل كل المحاولات للتعايش السلمى معهم.

ومن هنا نلمح هذا السلوك الانعزالى العنصرى العدوانى لدى اليهود وكأنه فعل قهرى مرضى لا يستطيعون مقاومته أو تغييره.

٧ ـ الهاجس الأمني ... حالة إدراكية مرضية

إن من يتابع سلوك الإسرائيليين سواء في الحرب أو في المفاوضات يدرك بسهولة سيطرة حالة من الخوف الداخلي الشديد على تصرفاتهم فعلى المستوى الحربي نجدهم يهتمون بأحزمة الأمان والمناطق العازلة حولهم، وقد احتلوا جنوب لبنان لهذا الغرض ثم تركوه مضطرين بعد أن اكتشفوا أنه مصدر رعب وليس مصدر أمان واحتلوا سيناء ووصلوا إلى قناة السويس وأنشأوا خط بارليف حتى يضمنوا وجود مانع مائي طبيعي ومانع ترابي (الساتر الترابي الذي أقاموه على شط القناة) ومانع عسكري قوي (النقط الحصينة الممتدة بطول القناة شملت الساتر الترابي). ثم تركوا كل هذا مضطرين حين اكتشفوا أن كل هذه المواقع قد تم اختراقها في حرب أكتوبر ٧٣ ولم توفر لهم الأمن وأصابتهم حالة من الذعر الشديد لم يهدئها إلا تدخل الولايات المتحدة بالسلاح والضغط السياسي، وهم مازالوا يتمسكون بهضبة الجولان السورية كهضبة استراتيجية تتيح لهم الحماية من أي هجمة سورية، بالإضافة إلى ذلك يطورون سلاحهم النووي كل يوم وهم حاليًا يمتلكون –حسب الروايات– حوالي ٢٠٠ قنبلة نووية بالإضافة إلى الأسلحة التقليدية، ولا توجد في العالم كله دولة بحجم إسرائيل تمتلك كل هذه القدرات العسكرية (التقليدية وغير التقليدية). أما على مستوى المفاوضات، فكان ملحوظًا أن أغلب الوقت يمضيه المفاوض الإسرائيلي في المراوغة من أجل الوصول إلى صيغة تضمن أمن إسرائيل على الرغم من كل ما تملكه من أسلحة.

وفي ١٨ أكتوبر عام ١٩٧٣ كتب الدكتور/ عبد الوهاب المسيري مقالاً بعنوان "لا نهاية للتاريخ" أشار فيه إلى أنه بغض النظر عن نتيجة الحرب فإن نظرية الأمن الإسرائيلية المبنية على فكرة الحدود الجغرافية الآمنة، والتي تسقط عنصر الزمان قد انتهت لأن العرب أثبتوا مقدرتهم على تطوير أنفسهم بمرور الزمن، وحينما حانت اللحظة المواتية، تحركوا وألحقوا الهزيمة بالعدو الذي أدرك بعدها أن الأمن لا يوجد في المكان وحسب، وإنما يوجد في الزمان أيضًا، وأنه ليس مسألة خاصة بالعلاقة بالجبال والحواجز المائية والترابية، وإنما أمر يتعلق بالعلاقة مع البشر.

والإسرائيليون لا يخشون الجيوش العربية فحسب، وإنما يخشون الشعب الفلسطيني الأعزل أيضًا، ولذلك حرصوا في كل الاتفاقيات على أن يعطوه مساحات متقطعة يعيش فيها، وغرسوا بينها مستوطنات يهودية ظنًا منهم أن ذلك يتيح لهم السيطرة على الفلسطينيين.

فثمة إحساس عميق لدى المستوطن الصهيوني بأن العربي الغائب لم يغب،

وأن وجود الشعب الفلسطيني لا يهدد حدود الدولة أو سيطرتها على أجزاء من الأرض الفلسطينية وحسب، وإنما يهدد وجودها كله. والإسرائيليون دارسون نهمون لتجربة استيطانية سابقة تمت في نفس المكان وهي تجربة حروب الفرنجة، وممالك الفرنجة التي دامت نحو قرنين من الزمان، ورحل أصحابها ولم يبق من آثارهم سوى بعض الأطلال. ولهذا السبب يتعمق الهاجس الأمني على مر الأيام، لا يسكنه شيء، ومهما قدم العرب من تنازلات، يظل الهاجس الأمني قائمًا، وكأنه لا علاقة له بالواقع، فهو حالة إدراكية مرضية لها جذور عميقة في الواقع (المسيري- جريدة الأهرام ٢٠٠٠/١١/٧).

فالكيان الصهيوني بطبيعته البارانوية يحمل في داخله كل مشاعر العدوان نحو الآخرين وهو يسقط هذه المشاعر عليهم، ولذلك يظل خائفًا ومتوجسًا منهم مهما قدموا له من ضمانات الأمن، بل على العكس كلما قدموا له ضمانات جديدة تشكك في مراميها وظن أنها خدعة جديدة أو مؤامرة تحاك ضده.

والأمر لا يتوقف على هذا الخوف الداخلي النفسي البارانوي وإنما هناك أيضًا أسباب خارجية موضوعية تبرره منها مثلاً أن المجتمع الإسرائيلي في حقيقته مجتمع مفكك مهلهل تكون من مجموعات جاءت من أشتات الأرض لا يجمعها على أرض فلسطين سوى أسطورة عششت في رؤوس المتطرفين من اليهود سرعان ما تتبخر بفعل نيران المواجهة مع الواقع ومع الفلسطينيين أصحاب الأرض ومع ٢٥٠ مليون عربي ومليار مسلم. فهم يدركون جيدًا أنهم يعيشون في "جيتو" على أرض ترفضهم ووسط محيط بشري عربي وإسلامي هائل يكرههم ويتحين الفرصة لابتلاعهم.

هذا الهاجس الأمني ولد إحساسًا عميقًا باليأس لدى الإسرائيليين، فالمؤرخ الإسرائيلي يعقوب تالمون يتحدث عن "عقم الانتصار" بعد أن رأى الجيش الصهيوني ينتصر في حرب تلو الأخرى ولا يحقق شيئًا لأن الشعب الفلسطيني يرفض الاختفاء ولأن الشعب العربي لا يتوقف عن تأييد الفلسطينيين وأن الشعوب الإسلامية لا تزال مستمسكة بالقدس وبأرض فلسطين (المسيري، جريدة الأهرام ٢٠٠٠/١١/٧، صفحة ١١).

٨ ـ الاغتراب

إن الاغتراب هو حالة يبدو معها الشخص وكأنه غريب عن المجتمع الذى يعيش فيه، إنه التوافق العصابى بعامة، حيث الهوة تزداد بين الفرد وعالمه (عبد القاد ١٩٩٣.

وبتطبيق هذا المفهوم على المجتمع الإسرائيلى نجد أن الكثرين منه يعيشون حالة اغتراب لا يجدون منها خلاصًا. فنظرًا للطبيعة غير المتجانسة لهذا التجمع اليهودى الصهيونى تشعر كل طائفة بغربتها وسط الطوائف الأخرى فلا يجمعهم فى هذه الأرض الغريبة عليهم سوى حلم أسطورى توراتى لا يستطيع دعم منظومة نفسية صحية تجعل الشخص يشعر بالانتماء الحقيقى لهذا المجتمع حيث تقف أمامه عقبات الانتماءات الطائفية بمستوياتها المختلفة (طائفة الاشكناز الغربيون وطائفة السفاراديم وطائفة اليهود الشرقيون)، وعقبات الانتماءات الدينية (اليهود التوراتيون المتشددون مقابل العلمانيون)، وعقبات اللغة (لغات متباينة ولهجات متعددة يحاولون تجاوزها بفرض اللغة العبرية الميتة) ، وعقبات الموقف من الآخر (الحمائم والصقور) ، وعقبات الخوف وانعدام مشاعر الأمان حيث يقيم على أرض ترفضه ووسط محيط عربى يمقته. يضاف إلى هذه العقبات عقبة أخرى شديدة الأهمية صنعتها إسرائيل من حيث لا تدرى وهى تدخل المستوطنات وسط المجتمع العربى الفلسطينى وكان الهدف منها أمنيًا حيث يتيح الفرصة لاختراق الجسد الفلسطينى ووضعه تحت المراقبة الصهيونية طوال الوقت، ولكن هذا الوضع جعل المستوطن الصهيونى يشعر بالغربة والرفض وسط المجتمع الفلسطينى الذى يرفضه ويهدده. ولم تفلح اتفاقيات السلام الهشة، ولم تفلح ترسانات الأسلحة، ولم يفلح التأييد الأمريكى فى طمأنة المستوطن الصهيونى على حاضره أو مستقبله فكانت حالة الغربة والاغتراب هى المصير المحتوم. وتختلف شدة هذه الحالة من طائفة لأخرى ولكنها تبدو أكثر حدة فى اليهود الشرقيين الذين يشعرون بكل ما سبق بالإضافة إلى شعورهم باستعلاء واحتقار اليهود الغربيين (الاشكناز) لهم.

ويمكن أن نلمح بوضوح هذا الاغتراب فى الأدب الإسرائيلى فها هو "يوسف حاييم برينز" أحد أبرز كتاب الأدب العبرى الفلسطينى يقول:

«وهنا (فى فلسطين) يظهر أنه لا فرق .. المنفى فى كل مكان .. لا فرق .. لا أمان .. فيم تأمن هنا؟! ملاك الموت فى كل مكان، وعيونه فى كل مكان تذهب إليه.. نفسى خاوية من الحلم.. ولكن إذا كان لا يزال هناك يهود فى العالم، وإذا كان لابد من التحدث ويصلهم صوتى لصرخت قائلاً: لا تعلقوا آمالكم على هذا

الحلم!! إنه حلم أجوف، حلم باطل بكل صوره.. وإذا كان هنـاك بقايـا مـن شعب، وإذا كان في مقدورهم أن يشعلوا شموعهم في أماكن تواجدهم فليفعلوا ذلك وليكن وجودهم هناك» (حماد ١٩٩٦).

ويشعر الإسرائيليون -نتيجة للعوامل سابقة الذكـر- بـاضطراب شـديد فـى الهوية يعبر عنه "شلو مو آفايو" وهو شاعر إسرائيلى فيقول:

«إن القضية التى نواجهها هى قضية الهويـة. وهـذه القضيـة هـى قضيـة كـل المجتمع الذى يبحث عن إسرائيل وهى محملـة فـى داخلهـا بـتراث ثقـافى خـاص بهـا، يختلف في جوهره أشد ما يكون الاختلاف عن التراث الـذى جلبتـه كـل جماعـة. ولا أستطيع أن أكون فى حل من تراثى وتراث آبـائى الـذى جلبتـه مـن الشـرق» (حمـاد ١٩٩٦).

ولا يتوقف الاغتراب على الحاضر بل يمتد إلى الماضى، إلى التـاريخ اليهـودى نفسه، ويعبر عن ذلك "حاييم هزاز" بصرخته:

«إننى أريد أن أعرف ماذا نفعل هنا فـى فلسـطين؟! إننـى لا أحـترم التـاريخ اليهودى، فليس لدينا تاريخ بالمرة.. لسنا نحن الذيـن صنعنـا تاريخنـا وإنمـا صنعتـه لنـا الشعوب الأخرى.. إنه لا يخصنا بالمرة» (حماد ١٩٩٦).

وفى اللحظة التى يكتشف فيهـا الإسـرائيلى زيـف الحلـم وزيـف الأسـطورة واستحالة الاستقرار علـى أرض مسـلوبة مـن أصحابهـا الذيـن يـتربصون لاسـتعادة أرضهم- فى هذه اللحظة يتحسر الإسرائيلى على تركـه لجـذوره الحقيقيـة فـى بلـده التى قدم منها وانسياقه وراء سـراب تسـوّقه لـه كهنـة الصهيونيـة، فهـا هـو "أمنـون شاموش" السورى الأصل، يتحسر علـى الرخـاء والازدهـار، وكـذا الأمـان النفسـى الذى طالما تنعم بهم قومه من اليهود فى الأندلس، وفى ظل حضارة الإسلام:

بيتى فى الشرق... وأصبوا بنظرى إلى الأندلس
أمدد جسدى على عشب الكيبوتس.. وروحى تحلق فى غرناطة
أندلسى أنا.. ومن الأندلس ارتحلت أسرتى

ويحاول أن يتصبر- فى ألمه الإسرائيلى- بالحنين إلى ما كان من معاش أهله الآمن فـى سوريا الإسلامية (الرفاعى ١٩٩٦):

بيت أبى وأمى فى حلب .. يجذب الناظريـن
وبيتى فى الجليل ألم .. ألم على أرض أخرى

ويتحسـر آخـر ، مـن أصـل عراقـى ويدعـى "بلفـور حقاقـه" علـى المـاضى "الذهبى" الذى تبدد فى "حاضر" إسرائيل (الرفاعى ١٩٩٦):

وهاجر جدى
كما هاجر إبراهيم من "أور"
هاجر من نفس الأرض
....
....
وفقد مجده
وفقد سلطانه ونفوذه
واكتسى وجهه بالحزن
وفسد المال
وضاع الذهب

ورغم كل الجهود التى تبذلها حكومة إسرائيل لصهر اليهود فى بوتقة الدولة اللقيطة، فإن اليهود- الشرقيون خاصة- يشعرون بالانتماء لأصلهم الحقيقى ويتبرأون من الهوية الإسرائيلية الزائفة، ويعبر عن ذلك شاعر إسرائيلى من أصل شرقى يدعى "يوآف حيق" (الرفاعى ١٩٩٦):

شرقى أنا
وكل شمس الشرق تجمعت فى عينى
وقدماى تقودانى غربًا
العربية لغتى
ولغة أمى خطوط متقاطعة
أبى لم يعرف العبرية
....
....
أسود اللون أنا
ومازالت فى قلمى بقايا من خرافات
وشكوكى تتزايد

وهذا شاعر آخر من أصل "يمنى" يعلن من خلال ديوانه "المارش إلى إسرائيل" الصادر عام ١٩٧٩م -يعلن أن إسرائيل الصهيونية قد سلبته -هو وطائفته- دينهم الذى كانوا يتعبدون به (الرفاعى ١٩٩٦):

لم يعد منظرًا طبيعيًا وا أسفاه

أن ترى طائفة اليمن ملتفة حول موائدها ،

منتظرة مجىء المسيح ! !

لم نعد نراهم يتدارسون الشريعة

....

....

لم يعد أبى ينعم بالهدوء

أقولها إنى لم أعد أهلاً للثقة

المسيح لن يأتى من اليمن

وهذا الشعور بالاغتراب ثمرته الاكتئاب واليأس والرغبة فى العودة إلى الوطن الأصلى الحقيقى الذى نزح منه اليهود (سواء منهم الشرقيون أم الغربيون، وهذه الرغبة تساور الكثير من اليهود فى إسرائيل وخاصة بعد العمليات الاستشهادية التى قام بها الفلسطينيون داخل المجتمع الإسرائيلى وأثارت فزعه وأيضًا بعد انتصار حزب الله فى جنوب لبنان.

٩ـ الصراع الطائفى

لعل من أبرز سمات المجتمع الإسرائيلى هو عدم تجانسه حيث يتكون من طوائف متباينة الجذور والغايات، ولم تفلح كل الجهود الحكومية لمد جسور بين تلك الطوائف فضلاً عن محاولة صهرها فى بوتقة المجتمع الإسرائيلى، وكذلك من الخطأ أن نقول بوجود مجتمع إسرائيلى (على الرغم من استعمالنا لهذا المصطلح كثيرًا على وجه التبسيط، وهو تبسيط مخل بالضرورة) وإنما الأصوب أن نقول: الطوائف الإسرائيلية. ويدرك القائمون على الحكومات الإسرائيلية عمق هذه التركيبة الطائفية المتنافرة لغويًا وثقافيًا وجغرافيًا ودينيًا، ولذلك يحاولون إيجاد قواسم مشتركة علها تجمع بين هذه الأشتات، فيعملون على استثارة النعرة الدينية فى أعماقهم، ويفعل ذلك الكثير من السياسيين العلمانيين رغم عدم اعتقادهم فى الديانة اليهودية أصلاً، ويحاولون أن يؤصلوا فكرة "الشعب اليهودى الواحد" وفكرة "الوطن القومى" وفكرة "العودة من الشتات" ، ولكن كل هذه الدعوات يثبت فشلها فى الواقع اليومى.

وهناك ثلاث طوائف أساسية فى إسرائيل وهى:

- طائفة الإشكناز
- طائفة السفارادبم
- طائفة اليهود الشرقيون

وإذا كانت أسبانيا هى المصدر الأول بالنسبة ليهود السفارادبم، الذين أصبحت تمثلهم المنطقة الجغرافية التى تشمل جنوب أوروبا وحوض البحر الأبيض المتوسط، فإن ألمانيا تعد المصدر الأساسى ليهود "الاشكناز". وبسبب طبيعة هذا التكوين، يعتبر الإشكناز أنفسهم -دون سائر طوائف اليهود- الأعلى ثقافيًا وحضاريًا، وكان من المؤكد أن يحدث الصدام بينهم وبين السفارادبم على وجه خاص، لكون السفارادبم "يعدون أو يدعون أنفسهم أرستقراطية اليهود على الأساس الدينى" . وعلى أى حال فإن المواجهة هنا تميل إلى التكافؤ بنوع ما، وإن كانت الغلبة فيها للإشكناز لكثرتهم العددية، ولتميزهم الحضارى، ولكونهم - بالفعل- يمثلون أقطاب الصهيونية الحديثة (حمدان ١٩٩٦).

أما ثالثة الطوائف اليهودية .. اليهود الشرقيون، فهؤلاء يستمدون أصولهم القديمة من فلسطين، وإليهم تنتمى مستعمرات فى شمال إفريقيا وفلسطين، ثم مستعمراتهم فى العراق واليمن، ثم القوقاز وإيران والتركستان الروسية وكذلك الهند والصين.. وهؤلاء - كما يقول الدكتور جمال حمدان- وإن كانوا- نظريًا أقرب إلى الأصول الفلسطينية فإنهم الأقل عددًا والأدنى مرتبة فى الهيراركية (التسلسل

الهرمى) اليهودية، حيث ينظر إليهم كل من الأشكناز والسفاراديم نظرة احتقار وإزدراء بلا مواربة. ويمثل الإشكناز من ٨٠-٨٥٪ من يهود العالم، أما السفاراد فلا تتعدى نسبتهم ١٢-١٥٪ من يهود العالم. وقد شكل الإشكناز نحو ٩٠٪ من يهود إسرائيل عند قيام الدولة اليهودية، بينما كانت نسبة السفاراد ١٠٪.. وهنا يجب أن نسجل أن اليهود الشرقيين غالبًا ما ينضوى وجودهم تحت نفس مسمى السفاراد (فراج ١٩٩٩).

والمجتمع الإسرائيلى بهذه التركيبة الطائفية يشبه قنبلة قابلة الانفجار فى أية لحظة، ولكن يؤجل انفجارها وجود التهديد العربى المحتمل فى أى لحظة، وربما يكون هذا هو العامل الأهم فى التماسك المؤقت لهذا المجتمع، وقد كان الداعون إلى السلام يراهنون على هذا الاحتمال حيث يتوقعون انهيار المجتمع الإسرائيلى بسبب الصراعات الطائفية فى حالة حدوث سلام بين العرب وإسرائيل، وربما هذا هو السر فى إصرار قادة إسرائيل على عدم إتمام اتفاقيات السلام حتى لا يتفجر الشعب الإسرائيلى من الداخل، فهم حريصون دائمًا على إطالة مدة الصراع مع العرب كبديل للصراع الطائفى الداخلى. وهم لا يكتفون بذلك بل يحاولون إسقاط التركيبة الطائفية على المجتمعات المجاورة فمثلاً يعملون على إثارة النزعة الطائفية بين المسلمين والأقباط فى مصر بحجة المحافظة على حقوق الأقلية القبطية فى مصر وهم يستخدمون الكونجرس الأمريكى والمؤسسات الأمريكية والصهيونية للترويج لهذه الفكرة. وكانوا أيضًا متورطين فى إثارة النزاعات الطائفية فى لبنان، وفى إثارة النزاعات بين السنة والشيعة.. إلخ.

إذن فالطائفية فى إسرائيل أشبه بمرض معدى يطفح صديده على العالم العربى والإسلامى، فتظهر أعراضه خارجيًا وتبقى الجرثومة الأصلية فى قلب المجتمع الإسرائيلى.

ويعبر الأدب أصدق تعبير عن ذلك الصراع الطائفى الكامن؛ فها هو الكاتب الإسرائيلى، العراقى الأصل، "شمعون بلاص" يصور حال الطائفة اليهودية العراقية فى إسرائيل بقوله:

«يبدو لى أنه منذ النفى البابلى لم تواجه الطائفة اليهودية العراقية ضائقة كتلك التى تواجهها هذه الأيام.. لقد امتهنت هذه الطائفة العتيقة، وتشتتت فى هذه البؤر المسماة بـ"المعابر" (إدريس ١٩٩٦).

ويقول "سامى ميخائيل" وهو أديب من أصل عراقى أيضًا فى روايته "متساوون ومتساوون أكثر" :

«لقد كان هناك (فى العراق) شيئًا آخر، ونحن هنا طائفة أخرى ساد علينا جوييم، وهنا يحكمنا يهود كالجوييم»(*) (إدريس ١٩٩٦).

ويقول نفس الكاتب، فى موضع آخر من نفس الرواية:

«لقد عشنا فى بلد (إسرائيل) يحكمه عنصر متعال من الاشكناز» (إدريس ١٩٩٦)

ويقول "سامى ميخائيل: فى موضع ثالث على لسان بطل روايته:

«نحن الآن نرتدى جميعًا نفس الملابس (فى الجيش الإسرائيلى) ويعفر أجسامنا نفس التراب،وكبار القادة وصغار الجنود، البيض والسود، وهناك قوة عليا تحت بصورة خفية ذلك الخط الفاصل بيننا.. لكنهم يضللونى.. لم أخرج هذه الحرب كيهودى وكإسرائيلى، وإنما كسفارادى (أسود).. وإذا عدت منها حيًا سأعود إلى وضعى السابق، حيث محفور على جبهتى أصلى ولون جلدى وعلامة طائفتى» (إدريس ١٩٩٦)

ومن الفقرة الأخيرة نلمح بوضوح أن حالة الحرب مع العرب هى الحالة الوحيدة التى تتوارى فيها الصراعات الطائفية مؤقتًا، وهذا يوضح إلى أى مدى يحتاج الإسرائيليون استمرار الصراع مع العرب والمسلمين دفعًا لخطر الطائفية الكامن فى الجسد الإسرائيلى.

(*) الجوييم صيغة جمع للفظة "جوى" العبرية التى تعنى الجيفة ويطلقها اليهود على الكافر والغريب وكل من هو غير يهودى (فراج ١٩٩٩)

١٠ـ العنصرية (Racism)

العنصرية هى اتجاه سلبى تعصبى تحيزى من جانب الفرد، ويعبر عن موقف يتخذه صاحبه إزاء فكرة أو رأى أو جماعة دون أن يكون هناك تبرير منطقى أو سند واقعى. فهو موقف سلبى لا تسنده حجة أو تجربة ولا يؤيده منطق، بل تدعمه وتؤكده ضغائن شخصية أو نزعات مرضية. والنتيجة لكل ذلك هو إفساد عملية الإدراك، ومن ثم اضطراب عملية الحكم والتقرير. والعنصرية فى معناها الخاص موقف سلبى مضاد للأقليات فى مجتمع من المجتمعات، وسواء كانت أقلية دينية أم سياسية، أم لونية، أم عرقية. والعنصرية موقف يعبر عن خلل واضطراب فى شخصية صاحبه، فالمشاعر العدوانية المكبوتة هى التى تقوم بالدور الحاسم فى تحديد موقف الفرد المتعصب وذلك من خلال عملية نقل المشاعر السلبية ونحوها وإسقاطها على آخرين. ولذلك فالعنصرى فى الغالب شخصية عدوانية وتسلطية (قنديل ١٩٩٣).

واليهود هم أول من وضع بذور العنصرية تاريخيًا حيث اعتنقوا فكرة شعب الله المختار، واعتقدوا فى تميزهم العنصرى على بقية البشر. وقد انتقلت هذه العدوى إلى الحضارة الغربية بشكل أو بآخر، وكانت أخطر نوباتها العنصرية الألمانية الهتلرية التى أدت إلى قتل ٤٥ مليونًا من البشر فى الحرب العالمية الثانية وفناء العديد من المدن والقرى بشكل وحشى لم يسبق له مثيل. وليس هنا مجال للربط التاريخى المفصل الدال على انتقال فكرة العنصرية من غلاة اليهودية إلى غلاة الألمان، ولكن من المفارقات العجيبة أن اليهود أصحاب الدعوى العنصرية الأصليين كانوا ضحايا لعنصرية النازى ودفعوا ثمن ذلك غاليًا.

وقد انتبه العالم المتحضر لخطورة النزعات العنصرية وراح يسن القوانين للسيطرة عليها وعلت أصوات الحكماء والمصلحين السياسيين والاجتماعيين لإزالة كل أشكال التمييز العنصرى والتطهير العرقى والإبادة الجماعية، ففى أمريكا عانى السود طويلاً من التمييز العنصرى، ولكنهم الآن يحكم القوانين المحاربة للعنصرية أصبحوا يحصلون على حقوقهم كبشر متساويين مع غيرهم من البيض. وقد حدث مثل هذا فى جنوب أفريقيا حيث نجح الزنوج بقيادة نلسون مانديلا بعد كفاح مرير فى إلغاء نظام الحكم القائم على فكرة التمييز العنصرى وعلى استغلال الأقلية البيضاء للأغلبية السود.

وفى أوروبا صيغت القوانين التى تقاوم كل أشكال التمييز العنصرى على الرغم من عدم إيمان بعض الأفراد أو الجماعات بهذا الاتجاه ولكن الجميع يخضع للقانون. وعندما حاول الصرب إحياء فكرة التمييز العنصرى والتطهير العرقى

والإبادة الجماعية في البوسنة وكوسوفا، رفض الضمير العالمي هذا التوجه (على الرغم من مباركة الكثير من القوى السياسية والعسكرية الغربية فكرة إخلاء أوروبا من التجمعات الإسلامية)، وفي النهاية، وبعد فترة تلكؤ ومماطلة هبت قوات حلف الأطلنطي بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية لوقف هذه الهجمة العنصرية ، ليس حبًا في المسلمين الضحايا، وإنما خوفًا من تنامي هذه النزعة العنصرية ووصولها إلى حد الخطر المهدد لأوروبا والعالم كما حدث في التجربة النازية الهتلرية.

وتعاليم الأديان السماوية الصحيحة كلها تدعوا للإخاء والمساواة والتعاون والتعيش بين البشر على مختلف ألوانهم وأجناسهم. وتتضح هذه المبادئ الإنسانية الرفيعة في التعاليم الإسلامية (الدين الخاتم الذى جمع فضائل كل الأديان) فنجد فيه : «كلكم لآدم وآدم من تراب» .. «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى» .. ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ .. «من عادى ذميًا فأنا خصيمه يوم القيامة».. «الناس سواسية كأسنان المشط» .. «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا» ...... الخ.

والعنصرية كالسرطان يبدأ في بؤرة معينة ثم ينتشر ويتكاثر حتى يهدد الكيان البشرى كله، وعلى الرغم من كل القوانين وكل التوجهات المعاصرة لمحاصرة هذا المرض الخطير إلا أنه قد بقيت بؤرة خطيرة للعنصرية صنعها اليهود في إسرائيل وتواطأت معها قوى غربية لأهداف ومصالح مختلفة. وعلى الرغم من العنصرية الصارخة لهذا الكيان الإسرائيلي وما يحمله من خطورة لا تتوقف عند الجانب الفلسطيني أو العربى، وإنما تمتد في يوم ما إلى العالم كله، على الرغم من كل هذا نجد أن القوى الكبرى في العالم تغض الطرف عنها وتتعامى عن مخاطرها سعيًا نحو أهداف مؤقتة متناسية الذكريات الأليمة للنزعات العنصرية على مر التاريخ وكيف دفعت الإنسانية كلها ثمن سكوتها عنها وهي في مهدها.

والآن نحاول سبر أغوار هذا الكيان العنصرى من خلال دراسة أقوال علمائهم ونصوصهم الدينية وأحوالهم التاريخية.

يقول فرويد (عالم النفس اليهودى الشهير): « إن لليهود فكرة عالية عن أنفسهم، وهم يعتقدون أنهم أنبل من غيرهم، وعلى مستوى أعلى وأكثر تقدمًا من الآخرين .. وإن سبب هذا الاعتزاز أنهم يصدقون في الواقع ما يقولونه عن أنفسهم من أنهم شعب الله المختار» (فرويد ١٩٥٥).

ويقول أيضًا:

«وفرض اليهود دومًا على أنفسهم شعورًا متجددًا بمتعة الزهد، طرحًا

للغرائز، وبذلك وصلوا -على الأقل من ناحية المذهب والشرائع- إلى سوامق أخلاقية ظلت بمنأى عن تناول الشعوب القديمة» (فرويد ١٩٥٥).

وهذه النزعة العنصرية المستعلية على باقى الأمم من غير اليهود "الجوييم" تجد جذورها القوية فى النصوص التوراتية المحرفة: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ (الآية ٧٥ من سورة البقرة)، وسوف نرى كيف لبست عنصرية اليهود وعدوانيتهم رداءً مقدسًا من نصوص توراتية أسطورية محرفة لا يعقل أن تصدر عن إله أو نبى.

ولنبدأ بتأمل السلوك الصهيونى فى فلسطين فى الوقت الحاضر -وهو واقع نشهده بأعيننا لحظة بلحظة فى كل وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمرئية- ثم نتتبع جذور هذا السلوك فى تراثهم الفكرى والدينى.

فقد ظهر التمييز العنصرى فى كل المجالات فى المجتمع الإسرائيلى بشكل فج، ومنها مجالات الإسكان -على سبيل المثال- فقد ذكر إسرائيل شاحاك ، الأستاذ بالجامعة العبرية، فى كتابه (عنصرية دولة إسرائيل- ص٥٧) أنه يوجد فى إسرائيل مدن بأكملها (كارمل، ونزارت، وإليت، وهتزور، وأرادوميتنزفين- رامن، وغيرها) يحرم القانون أن يقطنها غير اليهود (جارودى ١٩٩٦).

وقد حُرِّف "قانون العودة" لصالح اليهود، فأى يهودى قادم من أى مكان يصبح مواطنًا إسرائيليًا بمجرد ما تطأ أقدامه مطار تل أبيب، أما الفسطينى المولود فى فلسطين ومن أبوين فلسطينيين، فيجوز اعتباره عديم الجنسية (جارودى ١٩٩٦).

وهذا التطهير العرقى الذى يمارس بشكل منتظم فى دولة إسرائيل اليوم ينبع من مبدأ النقاء العرقى الذى يمنع امتزاج الدم اليهودى بأى دم دنس من دماء الآخرين (جارودى ١٩٩٦).

وفى سفر تثنية الاشتراع فإن الشعب المختار (الفصل السابع، ٦) لا ينبغى له الاختلاط بالآخرين: «ولا تصاهرهم ابنتك ولا تعطها لابنه وابنته لا تأخذها لابنك» (الفصل السابع، ٣).

وهذا الفصل العنصرى هو الطريقة الوحيدة لمنع تدنيس العنصر المختار من الرب، والدين الذى يربطه به.

وظل هذا الانفصال عن الآخر هو القانون. ففى كتابه "التلمود" (كوهين ١٩٨٦) كتب الحاخام كوهين يقول: يمكن توزيع سكان المعمورة بين إسرائيل والشعوب الأخرى جمعاء. فإسرائيل هو الشعب المختار.

ولم يتقاعس عزرا ونحميا، عقب عودتهما من المنفى فى تطبيق هذا الفصل العنصرى:

فقد بكى عزرا لأن الجنس الطاهر قد اختلط بشعوب البلاد (عزرا، الفصل التاسع، ٢). وهو الذى أمر بالانتقاء الجنسى وبالتمييز العنصرى: «جميع هؤلاء اتخذوا نساءً غريبات، وكان منهن من ولدن بنين» (عزرا، الفصل العاشر، ٤٤).

ويقول نحميا عن اليهود:

«فطهرتهم من كل غريب» (نحميا، الفصل الثالث عشر، ٣٠)

ومرض الخوف من الاختلاط ورفض الآخر قد تجاوز البعد الجنسى، فرفض دم آخر بالزواج المختلط يعنى رفض دينه كذلك وثقافته أو طريقة حياته (جارودى ١٩٩٦): وهكذا فإن "يهودى" ينفجر غضبًا فى وجه من ينحرفون عن الحقيقة، والتى لا يوجد غيرها طبعًا، فسوفونيا يقاتل ويحارب كل أشكال الملابس الأجنبية، ونحميا ضد اللغات الأجنبية. «وفى تلك الأيام أيضًا رأيت يهودًا قد تزوجوا نساءً أشدوديات وعمونيات وموابيات، وكان نصف كلام أولادهم بلغة أشدود، ولم يكونوا يحسنون التكلم باليهودية، بل بلسان شعب وشعب، فخاصمتهم ولعنتهم، وضربت منهم رجالاً ونتفت شعرهم، واستحلفتهم بالله أن لا تعطوا بناتكم لبنيهم ولا تأخذوا بناتهم لبنيكم ولا لكم» (نحميا ، ١٣، ٢٣-٢٥).

وتندرج أيدلوجية "الترنسفير" أى نقل السكان فى إطار متوسط بين الإبادة الكنعانية والخوف من الاختلاط، وتساندها الآن غالبية حاخامات يهودا وسامرا. وتقوم هذه السياسة على أساس قراءة متطرفة للنصوص المقدسة، مثل الخطاب الموجه من الأحبار إلى اليهود ويستحلفونهم فيها عدم ممارسة اختلاط الأجناس (الأحبار ١٩/١٩). وأمرهم بالتمييز بين الدم الطاهر والدم الدنس (الأحبار ٢٥/٢٠)، والذى ميز بين إسرائيل والشعوب الأخرى (الأحبار ٢٤/٢٠)، وذلك من أجل ممارسة التمييز العنصرى (الخروج ١٩/٨).

وهكذا لم يتورع الحاخام الأكبر سيترك أن يقول عام ١٩٩٣ دون رادع أو وازع من أى جهة من الجهات: « أود ألا يتزوج الشباب اليهود أبدًا إلا من شابات يهوديات». وهكذا فإن إسرائيل "المقدسة" (الأحبار ٢٦/٢٠) ينبغى ألا تتدنس (عزرا ١١/٩) بالاتصال بشعوب أخرى التى مقتها الرب (الأحبار ٢٣/٢٠).

وخطورة التمييز العنصرى فى حالة إسرائيل أنه يتشح بوشاح التقديس ويستمد جذوره من نصوص دينية يؤمن بها المتدينون منهم كنصوص إلهية، ويعتنقها غير المتدينين كأيديولوجية يرون أنها حافظت وتحافظ لليهود على بقائهم على مر العصور.

وبناءً على كل المعطيات السابقة (من نصوص دينية وممارسات يومية) فقد

اعتبرت منظمة الأمم المتحدة (فى جلسة عامة فى ١٠ نوفمبر ١٩٧٥) أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصرى.

ولم يكن هذا القرار مفاجأة، فإن اليهود أنفسهم لا ينكُرون هـذه العنصريـة، بل هى جزء أصيل ومحورى من معتقداتهم الدينية.

وقد أكد حاييم كوهين، الذى كان قاضيًا بالمحكمة العليـا فى إسـرائيل أنـه: «من سخرية الأقدار المريرة أن تستخدم نفس الأطروحات البيولوجية والعنصرية التى روَّج لها النازى، والتى أوحت لهم بقوانين نورمبرج الشائنة، كأساس لتعريف الوضـع اليهودى داخل دولة إسرائيل» (بادى ١٩٦٠).

والواقع أن المسألة قد طرحت أثناء محاكمة مجرمى الحرب فى نورمبرج، لدى استجواب منظِّر الأجناس جيولوس ستريشر:

«فى ١٩٣٥ وأثنـاء انعقـاد مؤتمـر الحـزب فـى نورمـبرج صـدرت القوانـين العنصرية. فهل تم استدعاؤك أثناء إعداد مشروع القانون هذا لإسداء المشورة، وهـل اشتركت بأى شكل من الأشكال فى وضع هذه القوانين؟»

ورد المتهم ستريشر: «أجل أعتقد أننى شاركت فى ذلك، وأننى منذ سنوات وأنا أكتب أنه ينبغـى فـى المستقبل منـع أى اختـلاط للـدم الألمانى بـالدم اليهـودى. وكررت دائمًا أننا ينبغى أن نـأخذ الجنـس اليهـودى، الشـعب اليهـودى، كنمـوذج. وأعبت فى مقالاتى أن اليهـود يجـب اعتبـارهم كنمـوذج للأجنـاس الأخـرى، لأنهـم يتبعون قانونًا عنصريًا، هو قانون موسى، الذى يقول: إذا ذهبت إلى بلد أجنبى، ينبغى لك ألا تأخذ امرأة أجنبية. وهذا أيها السادة على درجة كبـيرة مـن الأهميـة للحكـم على قوانين نورمبرج، فهى قوانين يهودية أخذت كنموذج. فهى أصـل الحفـاظ علـى الهويـة اليهوديـة التـى عاشـت طـوال عـدة قـرون فـى حـين أن الأجنـاس الأخـرى والحضارات الأخرى قد اندثرت» (المصدر: محاكمة كبار مجرمى الحرب أمام المحكمـة العسكرية الدولية- نورمبرج ١٤ نوفمبر ١٩٤٥- أكتوبر ١٩٤٦).

ومن هنا يتضح أن العنصرية النازية الألمانية التى كلفت البشـرية ٤٥ مليونًـا من القتلى قد استقت جذورها من العنصرية اليهودية وأخذتها كنموذج.

وهـذه العنصريـة، نمـوذج كـل أنـواع العنصريـة الأخـرى، هـى أيدولوجيـة تستخدم لتبرير هيمنة الشعوب المختلفة.

وقد كان هذا النموذج العنصـرى أيضًـا أمـام المستعمرين الأمريكـان وهـم يبيدون الهنود الحمر أصحاب الأرض الأصليين، فقـد كـانت أمـامهم صـورة يشـوع، القائد اليهودى وهو ينكل بأعدائه ويبيدهم:

الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة الرب. واستحيا يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل ما لها وسكنت في وسط إسرائيل إلى هذا اليوم، لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكي يتجسسا على أريحا.. وكان الرب مع يشوع وكان خبره في جميع الأرض» (سفر يشوع فصل ٦).

وأرسل يشوع ثلاثة آلاف رجل إلى "عاى" ليبيدوها ولكن أهل "عاى" هزموهم وقتلوا منهم ستة وثلاثين رجلاً.

«فقال الرب ليشوع: لا تخف ولا ترتعب. خذ معك جميع رجال الحرب، وقم اصعد إلى عاى. انظر قد دفعت بيدك ملك عاى وشعبه ومدينته وأرضه، فتفعل بعاى وملكها كما فعلت بأريحا وملكها. غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم.. ودخلوا المدينة وأخذوها، وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار. فالتفت رجال عاى إلى ورائهم ونظروا وإذا دخان المدينة قد صعد إلى السماء. فلم يكن لهم مكان للهرب هنا أو هناك... ولما رأى يشوع وجميع إسرائيل أن الكمين قد أخذ المدينة وأن دخان المدينة قد صعد، انثنوا وضربوا رجال عاى. وهؤلاء خرجوا من المدينة للقائهم، فكانوا في وسط إسرائيل، هؤلاء من هنا وأولئك من هناك. وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت. وأما ملك عاى فأمسكوه حيًا وتقدموا به إلى يشوع وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاى في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعًا بحد السيف حتى فنوا، أن جميع إسرائيل رجع إلى عاى وضربوها بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء أثنى عشر ألفًا، جميع أهل عاى. ويشوع لم يرد يده التي مدها بالمزراق حتى حرَّم (أى قتل) جميع سكان عاى. لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها إسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذى أمر به يشوع. وأحرق يشوع عاى وجعلها تلاً أبديًا خرابًا إلى هذا اليوم. وملك عاى علقه على الخشبة إلى وقت المساء، وعند غروب الشمس أمر يشوع فأنزلوا جثته عن الخشبة وطرحوها عند مدخل باب المدينة، وأقاموا عليها رُجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم» (سفر يشوع فصل ٨).

هل يستطيع خيال القارئ استيعاب كل هذا العنف وهذا الدمار وهذا الحرق وهذه الإبادة؟؟ .. هل يستطيع تصور موت أثنا عشر ألفًا -هم كل أهل عاى رجالاً ونساءً- في يوم واحد؟.. هل يستطيع تصور حجم أشلائهم وهل يستطيع تصور كمية الدماء المراقة في هذا المكان..؟! وهل يستطيع تصور حجم الغضب والعدوان الكامن في صدور من فعلوا كل هذا؟!.. وهل يستطيع أن يصدق أن كل هذه الوحشية قد تمت بأمر من الرب؟!.

«أخبر عبيدك إخبارًا بما أمر به الرب إلهك موسى عبده أن يعطيكم كل الأرض، ويبيد جميع سكان الأرض من أمامكم» (سفر يشوع فصل ٩).

وأثناء اجتياح يشوع الدامي للضفة لغربية يهـرب خمسـة ملوك ويختبـؤا فـي مغارة في موقع يسمى مَقِّيدة.

«فقال يشوع افتحـوا فـم المغـارة وأخرجـوا إليّ هـؤلاء الخمسـة الملـوك مـن المغارة. ففعلوا كذلك وأخرجوا إليه أولئك الملوك الخمسة من المغارة: ملك أورشليم، وملك حبرون، وملك يرموت، وملـك لخيـش، وملـك عجلـون. وكـان لما أخرجـوا أولئك الملوك إلى يشوع أن يشوع دعا كل رجال إسرائيل، وقال لقواد رجال الحرب الذيـن سـاروا معـه: تقدمـوا وضعـوا أرجلكـم علـى أعنـاق هـؤلاء الملـوك، فتقدمـوا ووضعوا أرجلهم علـى أعنـاقهم. فقـال لهـم يشـوع: لا تخـافوا ولا ترتعبـوا. تشـددوا وتشجعوا. لأنه هكذا يفعل الرب بجميع أعدائكم الذين تحاربونهم. وضربهـم يشـوع بعـد ذلـك وقتلهـم وعلقهـم علـى خمـس خشـب، وبقـوا معلقـين علـى الخشـب حتى المساء... وأخذ يشوع مقيدة في ذلك اليوم وضربها بحد السيف، وحرق ملكها (أي قتلـه) هـو وكـل نفـس بهـا. فلـم يبـق شـاردًا. وفعـل بملـك مقيـدة كمـا فعـل بملك أريحا» (سفر يشوع فصل ١٠).

نلاحظ في النص السابق الرغبة الشديدة في القتـل وإلا كـان بإمكانـه أسـر الملوك الخمسة، وليس فقط القتل بل الصلب على الخشب. ويعيد يشوع علـى شعبه الأمر الذى الذى جاءه من الرب: تشددوا وتشجعوا، وكأنه خشى أن يخالط قلوبهـم بعض الشفقة أو الرحمة بالأعداء، فاستنفر فيهم مزيدًا من العدوان الـذى سـيحتاجونه في مزيد من الإبادة كما سنرى في النص التالي:

«ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل أسرائيل معه إلى لِبْنه وحارب لبنه. فدفعها الرب هي أيضًا بيد إسرائيل مع ملكها، فضربها بحد السيف كل نفس بهـا. فلـم يُبـق بها شاردًا، وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه مـن لبنة إلى لخيش ونزل عليها وحاربها. فدفع الرب لخيش بيد إسرائيل فأخذها في اليـوم الثاني وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسـب كـل مـا فعلـه بلبنـة. حينئـذ صعـد هورام ملك جازر لإعانة لخيش، وضربه يشوع مع شعبه حتى لم يبق شاردًا. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لخيش إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها، وأخذوها في ذلك اليوم وضربوها بحد السيف، وحـرّم (أي قتـل) كـل نفـس بهـا فـي ذلـك اليـوم حسب كل ما فعل بلخيش. ثم صعـد يشـوع وجميـع إسـرائيل معـه مـن عجلـون إلى حبرون وحاربوها، وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفـس بها. فلم يُبق شاردًا حسب ما فعل بعجلون، فحرمها وكل نفس بها. ثم رجع يشـوع وكل إسرائيل معه إلى دبير وحاربها، وأخذها مع ملكها وكل مدنهـا، وضربوهـا بحـد

الهاجاناه فى فلسطين عام ١٩٤٨ وبعدها، وأيضًا القتل الجماعى للأسرى المصريين فى صحراء سيناء، فكأنهم ينفذون نصوصًا دينية ويتقربون إلى الرب بهذا الفعل.

ومن شارون إلى الحاخام مائير كاهانا، فذاك تجسيد للطريقة التى سيتبعها الصهاينة حيال الفلسطينين. ألم تكن مسيرة يشوع هى مسيرة مناحم بيجن عندما قضى فى ٩ أبريل عام ١٩٤٨ على سكان دير ياسين، من الرجال والنساء والأطفال البالغ عددهم ٢٥٤ نسمة، وقتلهم هو وجنود "الأرجون" لكى يفر العرب العزل مذعورين (مناحم بيجن: العصيان، تاريخ الأرجون ١٩٧٨ ص ٢٠٠). (ومن المفارقات المضحكة المبكية أن يحصل مناحم بيجين على جائزة نوبل للسلام بعد ذلك..!!!).

وألم يكن طريق يشوع هى التى أشار إليها موشى ديان: «فإذا كنا نمتلك التوراة، وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة، فينبغى لنا أن نمتلك كذلك أرض التوراة» (جيروزاليم بوست، ١٠ أغسطس ١٩٧٧).

وألم يكن طريق يشوع هو الطريق الذى وضعه يورام بن بورات فى الجريدة الإسرائيلية الكبرى أديعوت أحرونوت، الصادرة فى ١٤ يوليه ١٩٧٢: «لا صهيونية واستعمار للدولة اليهودية بدون إبعاد العرب وطردهم والاستيلاء على أراضيهم»

أما وسائل وأساليب هذا الاستيلاء على الأرض فقد حددها رابين عندما كان جنرالاً على الأراضى المحتلة: تكسير عظام ملقى الحجارة من أطفال الانتفاضة.

فماذا كان رد فعل المدارس التلمودية فى إسرائيل؟ تسليم السلطة إلى أحد المسئولين المباشرين عن مذبحة صبرا وشاتيلا وهو الجنرال رفائيل إيتان الذى نادى "بزيادة تحصين المستوطنات القائمة".

وبنفس هذا اليقين، اندفع الدكتور باروخ جولدشتين، وهو مستوطن (مستعمر) من أصل أمريكى، من قرية أربة (الضفة الغربية) وقتل أكثر من سبعة وعشرين فلسطينيًا وجرح أكثر من خمسين، وهم يصلون فى الحرم الإبراهيمى. كان باروخ عضوًا فى جماعة متطرفة تأسست برعاية أريل شارون (أى تحت حماية من قاد مذابح صبرا وشاتيلا والذى كوفئ على جريمته بتعيينه وزيرًا للإسكان ومكلفًا بتنمية المستوطنات فى الأراضى المحتلة)، وهو (جولدشتين) الآن موضع تبجيل المتطرفين الذى يأتون إلى قبره بالزهور وينحنون لتقبيله، فهو الأمين على تقاليد يشوع الرامية إلى القضاء على كل شعوب كنعان (فلسطين) من أجل الاستيلاء على اراضيهم (جارودى ١٩٩٦).

١١ - التعصب

التعصب فى العربية يعنى التحيز والتحامل، من العصبة بمعنى أهل الرجل وعشيرته، والمتعصب (Prejudiced) هو شديد التحيز والتحامل. والتعصب فى اللغات الأجنبية يعنى الحكم المسبق Prejudice الذى لا يستند إلى واقع موضوعى أو منطق سليم، ويكون لدى المرء بحكم وجوده بين من ينتمى إليهم، وينتقل منهم إليه، فيكره أو يحب من تنسحب عليه الفكرة التعصبية أو الحكم المتحيز أو ما يتصل به من أشياء أو موضوعات دون سابق معرفة أو تجربة، ومن ثم فالتعصب هوى بالنفس أو اتجاه نفسى، وهو أظهر فى مجال العلاقات الاجتماعية، ويشتهر منه ما نطلق عليه أحيانًا اسم التعصب الأجناسى Racial Prejudice، يكون لجنس ضد جنس، أو نطلق عليه أحيانًا أخرى اسم التعصب العرقى Ethnic Prejudice.

ويعتبر التعصب من مباحث علم النفس الاجتماعى ويدرس فيه ضمن الدراسات على الاتجاهات النفسية الاجتماعية، وهو لهذا له بعدان، واحد اجتماعى وآخر نفسانى. فأما الاجتماعى فهو أن تكون للتعصب أسبابه الاجتماعية، كأن تكون لجماعة من الناس تجارب بجماعة أخرى، ربما كانت تجارب تاريخية تروى عنها الكتب وخاصة الكتب الدينية كما فى التوراة عن الشعوب غير بنى إسرائيل، حيث يتحزب التوراه لليهود ويجعلهم شعبًا أرقى من غيرهم، فيرين فى التفكير الجمعى لهم أنهم "الشعب المختار" وأن غيرهم يعتبرون الجوييم أو العامة أو الأميين كما يرد فى القرآن (الحفنى ١٩٩٥).

وبعبارة أخرى يمكن القول بأن التعصب اتجاه نفسى لدى الفرد يجعله يدرك فردًا معينًا أو جماعة معينة أو موضوعًا معينًا إدراكًا إيجابيًا محبًا أو سلبيًا كارهًا دون أن يكون لذلك ما يبرره من المنطق أو الشواهد التجريبية، ولذا فإن المحاجاة المنطقية والخبرات الواقعية لا ينجحان عادة فى إزالة التعصب أو الشفاء منه، ومن هنا فالتعصب يقاوم التغيير والتعديل (طه ١٩٩٣).

ولابد أن يكون التعصب كسلوك مجزيًا لصاحبه سواء كان فردًا أو جماعة، بمعنى أن يكون له مردود من المكاسب، وقد تكون المكاسب نفسية، وربما اجتماعية، وفى كثير من الأحيان تكون المكاسب مادية أو اقتصادية. والتعصب يجعل فى مقدرة المتعصب أو المتعصبين الذين هم السيطرة والسيادة فى مجتمعاتهم أن يميزوا أنفسهم فيها، وأن يفرزوا غيرهم بحيث يستبقونهم تابعين لهم وخاضعين لسيطرتهم وسيادتهم، وبذلك يستمر استغلالهم لهم واستخدامهم كعبيد وأرقاء (الحفنى ١٩٩٥). وهذا هو الوضع القائم فى فلسطين حيث يقوم اليهود بالسيطرة على المنافذ البرية والبحرية

والجزية ويمسكون بكل مفاتيح الاقتصاد ويسيطرون بالكامل على لقمة العيش بالنسبة للشعب الفلسطيني ويمارسون نحوه كل أنواع التعصب والتمييز العنصرى.

ومن مكاسب التعصب أن المتعصِّب يجعل المتعصَّب ضده احتياطيًا اجتماعيًا له ينسب إليه كل المفاسد ويرجع بسببه كل المصائب (الحفنى ١٩٩٥).وقد رأينا فى انتفاضة الأقصى (عام ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) كيف كانت الدبابات الإسرائيلية والرشاشات الإسرائيلية تحصد أرواح الفلسطينيين ومنازلهم، وفى نفس الوقت يتهمون الفلسطينيين بالعنف والإرهاب لمجرد أنهم وقفوا بصدورهم العارية يصدون العدوان عن أنفسهم وعن مزارع الزيتون التى هى مصدر رزقهم الوحيد فى تلك الظروف.

والمتعصب يبنى تعصبه على أسباب خاصة به هو، ولكنها فى النظرة الموضوعية لا تعدو كونها أغاليط Falacies، ومن هنا يصبح التعصب مبنيًا على تشوهات معرفية تؤدى إلى تشوهات وجدانية وبالتالى تشوهات سلوكية. لذلك فالتعصب يعتبر اضطرابًا نفسيًا اجتماعيًا، يصل فى خطورته كمرض إلى مستوى "البارانويا" ويؤدى إلى كوارث إنسانية عديدة لمسناها فى الحربين العالميتين (نتيجة اعتقاد الألمان فى تفوقهم وتميزهم) ونلمسه حاليًا فى الصراع العربى الإسرائيلى نتيجة السلوكيات العنصرية المتعصبة لليهود ضد الفلسطينيين، بل ضد العرب جميعًا. ويمكن اعتبار عقيدة "شعب الله المختار" و "الشعب الأرقى" ضلالات (Delusions) تصيب المجتمع الإسرائيلى بمعنى أنها معتقدات خاطئة لا تقوم على دليل، ويصعب تغييرها بالإقناع أو النقاش.

والمجتمع المتعصب ينشئ أفراده على التطرف فى انتمائهم لمجتمعهم الداخلى من ناحية، وعلى العداوة الشديدة للمجتمعات الأخرى. وتتعاون الأسرة مع المدرسة مع وسائل الإعلام طول الوقت على بث بذور التعصب فى نفوس النشء حتى إذا كبروا كانوا أشبه بمخازن عدوان قابلة للانفجار فى أية لحظة. ويبدو هذا واضحًا فى سلوك المستوطنين (المستعمرين) اليهود فى فلسطين حيث يتميز سلوكهم بعدوانية وحشية نحو كل ما هو فلسطينى أو عربى، وذلك نتيجة تكوينهم العدوانى الشخصى بالإضافة إلى عمليات الشحن الانفعالى المستمرة. وقد دأبت بعض الجمعيات اليهودية التى تشرف على تربية الأطفال اللقطاء من اليهود على أن تغرس فيهم منذ الصغر فكرة أن العرب هم الذين قتلوا آباءهم، فيكبر هؤلاء الأطفال وفى داخلهم شعور وحشى نحو كل عربى. وهذه الشخصيات التى تربت على الكراهية والعدوان والتعصب تجد نفسها مذعنة لاتجاهات جماعتها لأنها تجد فيها متنفسًا لمشاعر الكراهية والعدوان المكبوتة.

ويذهب علماء النفس إلى رد بعض أسباب التعصب إلى مشاعر نقص في المتعصب تجعله يغالي في الانتساب لقيم ومعايير جماعته ليقوى بها، ويجد متنفسًا يصرف مشاعر النقص عنده على أفراد الأقلية. وكثيرًا ما نجد المتعصبين في جماعاتهم أفرادًا يتميزون بضيق الأفق وضحالة التفكير وسطحية المعرفة وضآلة الشأن. وقد تسبب هذه الأمور إحباطًا للشخص يفجر فيه طاقات عدوانية قد يستسهل تصريفها اجتماعيًا فيما تنصرف فيه عدوانية أفراد جماعته وهو التعصب ضد الأقلية، وبذلك يحقق لنفسه تصريف عدوانيته ويكون هذا التصريف اجتماعياً يستشعر به أنه منتم لجماعته ولا يجد تثريبًا عليه من ثم فيما يقوم به من أذى أو ضرر يقع منه على الأقلية (طه ١٩٩٥).

وقد وجدنا في فترات استرخاء الصراع بين العرب وإسرائيل في حقبة مفاوضات السلام أن الصراعات الداخلية في المجتمع الإسرائيلي تنشط بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين، حيث يشعر الشرقيون أنهم مضطهدون من الغربيين، وان الآخرين ينظرون إليهم باستعلاء واحتقار، وتبرز أيضًا الصراعات بين المتطرفين الدينيين وبين العلمانيين، أو بين حزبي الليكود والعمل.. وهكذا. ولكن حين يتجدد الصراع مع العرب مرة أخرى تجدهم يسارعون بتكوين حكومة طوارئ ائتلافية مكونة من العدوين اللدودين الليكود والعمل لمواجهة الخطر العربي المشترك (في زعمهم).

ويأخذ التعصب أشكالاً عدة، منها أن يكون باللسان لغة وتعبيرًا، وأن يكون باعتزال من يقع عليهم التعصب، والتعالي عليهم وتحقيرهم وحرمانهم اجتماعيًا ووظيفيًا، والاعتداء عليهم في أبدانهم وأملاكهم، وقد يتوجه إلى إبادتهم. والنكات البذيئة المحقرة للأقلية مثل من أمثلة التعصب باللغة، ومن الممكن أن تلاحظ النكات إذا لم تقترن باعتزال المتعصب لهم، واعتزالهم قد يعني رفض إشراكهم في السكن في الحي أو البناية أو الفندق، وتأبِّى أنواع من التعليم عليهم، وقد لا ينالون نفس النوع من الرعاية الصحية. ويعتبر الاعتداء أو الإبادة من السلوكيات المشهورة عند المتعصبين، ومن ذلك الاغتيالات، والغارات الأجناسية كالتي يقوم بها اليهود على أحياء العرب في فلسطين المحتلة، ومن ذلك أيضًا مختلف صنوف المعاملة المميزة التي من شأنها أن تدفع الأقلية المضطهدة إلى الهرب بنفسها من جحيم التعصب، كما يحدث الآن في فلسطين (الحفني ١٩٩٥).

ومن الصور الصارخة للتعصب بناء المستوطنات (المستعمرات) كجزر منفصلة تمامًا يسكنها اليهود وسط المناطق الفلسطينية، وتعتبر نقاط التماس خطوط

مواجهة ساخنة بين الطرفين، ولا يحدث امتزاج أبدًا بين المجتمعين. وهذا الوضع السكانى المتعصب يعتبر قنابل موقوته قابلة للانفجار فى كل لحظة.

ومن الممكن تصنيف التعصب من جهة أخرى بحسب الصور النمطية المعممة عن المتعصب عليهم. وهذه الصور المعممة Stereotypes لها شكلان: الشكل الأول هو صور للجماعة الأخرى باعتبار أفرادها من الكفار الملعونين المستوجبين للتعذيب فى الدنيا والآخرة والمستحقين للقتل باعتبارهم كفارًا، أو باعتبار أنهم نجس، لاختلاف طقوسهم وعاداتهم وتقاليدهم، وفى ذلك تروى الحكايات عن قذارتهم وإجرامهم وحقارتهم، تبريرًا لاعتزالهم والامتناع عن التعامل معهم. والشكل الآخر هو أن يقال أنهم جنس أحط عقليًا ونفسيًا، تبريرًا لاستبعادهم عن السلطة والمناصب الفكرية (الحفنى ١٩٩٥).

ولقد ثبت أن هناك أنماطًا من الشخصية المتعصبة أطلق عليها اسم الشخصية المتمركزة حول العرق Ethnocentric Personality تجد المتنفس عن أوجه النقص فيها بالمغالاة فى الانتماء لجماعتها والانقياد لقيادتها وإظهار العداء الشديد لأعدائها. العالم عندها إما أقوياء أو ضعفاء، وهى تكره الضعف لأنه فيها هى نفسها، ولكنها تسقطه على الآخرين وتتطرف فى الإساءة للضعفاء والمستضعفين والأقليات (الحفنى ١٩٩٥). ولذلك فإنه من المفيد أن يكون الآخر قويًا أمام هذه النماذج المرضية حتى تتوقف عمليات الإسقاط وتتوقف التوجهات العدوانية ، وهذا ما حدث بالفعل فى التعامل مع الكيان الصهيونى، حيث ثبت من الأحداث أنه كان يخنث حين يواجه بالقوة التى تردعه (كما حدث فى حرب السادس من أكتوبر العاشر من رمضان، وكما حدث فى جنوب لبنان)، وعلى العكس كان يستأسد ويتوحش حين يستشعر الضعف والتسليم من أعدائه (كما حدث إبان محادثات السلام مع الفلسطينيين).

وإن تشوه إدراك المتعصب يجعله غير قادر على تقدير احتياجات الآخرين ومشاعرهم فهو لا يتخيل أن لهم حقوق أو احتياجات أو مشاعر مثل كل البشر لذلك تكون توجهاته نحوهم شديدة العنف والقهر والسحق.

١٢- طريق يشوع: غريزة العدوان والإبادة

إن علماء النفس (والتحليليين منهم على وجه الخصوص) يقرون بأن غريزة العدوان هى أحد الغرائز الأساسية فى النفس البشرية، ولكن الإنسان يتعلم كيف يهذب هذه الغريزة ويتسامى بها لكى لا تدمره ولا تدمر غيره، ولكى يسخرها فى خدمة أهداف الحياة. أما إذا زادت هذه الغريزة وطغت وخرجت من عقالها فإنها تصبح حالة مرضية تدمر صاحبها وتدمر من حوله وتصبح خطرًا على الحياة.

والمتأمل للسلوك الصهيونى يلمح بسهولة أن غريزة العدوان تبدو طاغية إلى حد التدمير والإبادة فهذا الكيان الصهيونى يتملك حتى الآن على الأقل مائتى رأس نووية يهدد بها من حوله، ويحرص على امتلاك كل أنواع الأسلحة المتقدمة ليتفوق بها على جيرانه، وهو يعيش طول الوقت بمنطق القوة والسيطرة، ويمارس الاستعمار (المسمى خطأ بالاستيطان) ، ويبيد القرى ويحاول تغيير الجغرافيا وتحريف التاريخ.

والسلوك العدوانى الصهيونى يجرح الضمير الإنسانى كل يوم على شاشات التليفزيون، فقد رأينا الطفل محمد الدره وهو يقتل فى حضن أبيه لحظة بلحظة برصاص الجنود الإسرائيليين، وهم يتلذذون بمنظر الرعب على وجه الطفل وأبيه لمدة ساعة أو أكثر ولا يستريحون إلا حين يلفظ الطفل أنفاسه الأخيرة ويسقط فى حجر أبيه واضعًا يده الصغيرة فوق وجهه وكأنه لم يعد يحتمل رؤية كل هذا الرعب الوحشى من هؤلاء الجنود.

ويتكرر هذا السلوك حين يقف مجموعة من الجنود الإسرائيليون ويطلقون الرصاص على عامل نظافة فلسطينى حتى تنقطع رجله اليمنى بفعل غزارة الرصاص وهو يصرخ حاملاً رجله المقطوعة، ثم يمضى هؤلاء الجنود (الوحوش) فى طريقهم وكأنهم لم يفعلوا شيئًا يستحق الاهتمام.

ويتكرر المشهد حين يقتلون طفلاً عمره سنة ونصف وهو فى حضن أمه، وتبلغ الوحشية قمتها بقتل الرضيعة "إيمان حجو" ذات الأربعة شهور بقذيفة اخترقت بطنها وأخرجت أحشاءها.

ويتكرر مرة أخرى حين يقتل أحد المستوطنين طفلاً فلسطينيًا فى العاشرة من عمره، وهذه المرة لم يرحمه ويقتله برصاصة وإنما دهسه بقدميه حتى مات، والغريب أن المحكمة حكمت على هذا المستوطن (المستعمر) بستة شهور ليس سجنًا وإنما "خدمة عامة".

ويقفز إلى الوعى العربى قصة القتل الجماعى للأسرى المصريين فى سيناء بلا

رحمة، وقصة إبادة القرى الفلسطينية، والقصف اليومى للقرى والمدن اللبنانية، ومذبحة قانا، وإبادة المدنيين اللبنانيين الذين ذهبوا ليحتموا بقوة الأمم المتحدة وبالخنادق، ومذبحة أطفال مدرسة بحر البقر، ودير ياسين، وصابرا وشاتيلا وغيرها كثير كثير.

هذا السلوك العدوانى وهذا القتل الجماعى وهذه الإبادة الوحشية المستمرة ضد أطفال الانتفاضة حتى هذه اللحظة لا نكاد نجد فى أحداث الصراع ما يبررها.. فماذا يا ترى يكون الدافع إليها؟!.

لا يمكننا فهم التركيبة النفسية لليهود، وفهم السياسة العدوانية للمشروع الصهيونى الإسرائيلى دون العودة إلى المرجعية الأساسية الكامنة وراء هذا السلوك، فمن خلال هذه المرجعية -فقط- نستطيع قراءة الماضى وفهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل.

وبما أننا لسنا بصدد استقراء دينى وتاريخى لليهود والصهيونية، وإنما نحن بصدد استقراء للتركيبة النفسية لهؤلاء الناس، فإننا نكتفى بنقل نصوص قليلة من التوراة وخاصة من سفر يشوع الذى يشكل إلى حد كبير السلوك السياسى والعسكرى للمشروع الصهيونى.

ويشوع، وهو خادم موسى وخليفته، وهو البطل اليهودى الذى نفذ المشروع اليهودى على أرض الواقع:

«وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلّم يشوع بن نون خادم موسى قائلاً: موسى عبدى قد مات. فالآن قم واعبر هذا الأردن أنت وكل الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لكم -أى لبنى إسرائيل-. كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته، كما كلمت موسى. من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات، جميع أرض الحيثيين، وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تُخمكم. لا يقف إنسان فى وجهك كل أيام حياتك.. تشدَّد وتشجَّع، لأنك أنت تقسم لهذا الشعب الأرض التى حلفت لآبائهم أن أعطيهم. إنما كن متشددًا، وتشجع جدًا لكى تتحفظ للعمل حسب كل الشريعة التى أمرك بها موسى عبدى. لا تمل عنها يمينًا ولا شمالاً لكى تفلح حيثما تذهب. لا يبرح سِفْر هذه الشريعة من فمك، بل تلهج فيه نهارًا وليلاً، لكى تتحفظ للعمل حسب كل ما هو مكتوب فيه.. أما أمرتك؟ تشدد وتشجع! لا ترهب ولا ترتعب لأن الرب إلهك معك حيثما تذهب» (سفر يشوع، فصل ١) وواضح أن هذه الأحداث المذكورة فى هذا النص قد حدثت بعد وفاة موسى، ولا ندرى كيف كلّم الرب يشوع بن نون، هل كلمه فى الحلم، أم أوحى

إليه فى اليقظة، وكيف يوحى إليه فى اليقظة ولم يثبت بدليل أنه نبى أو رسول؟! كل هذه تساؤلات تضعنا أمام قضية هامة، وهى أن هذا النص لم يرد على لسان موسى النبى، وإنما ورد على لسان شخص عادى يعتبره اليهود بطلاً شعبيًا وهو يشوع وعلى الرغم من ذلك نجد أن اليهود يقدسون هذا النص ويتبعون طريقه كما سوف نرى.
ولو عرفنا أن نصوص التوراة قد كتبت بعد وفاة موسى بمئات السنين وانتقلت عبر هذه السنين مشافهة فلنا أن نتساءل عن دقة النقل وتأثره بالظروف الإنسانية والتاريخية. وواضح من النص أن الرب يأمر يشوع بأن يتشدد ويتشجع وقد كرر هذا الأمر ثلاث مرات (وربما يفسر لنا هذا تشدد المفاوض الإسرائيلى المعاصر وتشجعه على المطالبة بما ليس له).

«فأرسل يشوع بن نون من شِطِّيم رجلين جاسوسين سرًا، قائلاً: اذهبا انظرا الأرض وأريحا. فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها راحاب واضطجعا هناك». (سفر يشوع ، فصل ٢)

نلاحظ فى هذا النص أن رسولا يشوع اختارا من بين كل الأماكن بيت امرأة زانية، وقد تكرر هذا الاختيار أيضًا فى قصة شمشون حين نزل غزة فاختار أن يبيت عند امرأة زانية، فيا ترى ما سر هذا الإصرار على اختيار بيوت الزانيات كى ينزل فيها أبطال اليهود؟!... وهل هذا الاختيار التاريخى القديم يفسر لنا استعانة اليهود بنساء الليل والغانيات فى أنشطتهم الاستخبارية (مونيكا أيضًا كانت فتاة يهودية سلطتها أحد الجماعات لتغوى كلينتون رئيس أكبر دولة). وقد حدث التعاون بين المرأة الزانية وجواسيس يشوع، حين دخل يشوع مدينة أريحا أبادها عن آخرها، ولم يبق فيها إلا الزانية وأسرتها..!! والسبب ليس فقط أن هذه الزانية خبأت الجاسوسين وإنما نبأتهما بنبوءة هامة نقلاها إلى يشوع بعد ذلك:

«وأما هما فقبل أن يضطجعا، صعدت إليهما إلى السطح وقالت للرجلين: علمت أن الرب قد أعطاكم الأرض، وأن رعبكم قد وقع علينا، وأن جميع سكان الأرض ذابوا من أجلكم» (سفر يشوع، فصل ٢)

وهكذا تأتى النبوءات إلى يشوع على لسان زانية فيتحرك استجابة لها:

«فبكر يشوع فى الغد وارتحلوا من شَطِّيم وأتوا إلى الأردن هو وكل بنى إسرائيل» (سفر يشوع فصل ٢)

ثم دخل يشوع أريحا ومارس -بأمر الرب- كل ما سنراه فى النص التالى:

«وحرَّموا (أى قتلوا) كل ما فى المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحدّ السيف... وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما

«إن مستوطنى أمريكا من البروتستانت الأطهار كانوا فى سبيل الاستيلاء على أراضى الهنود ومطاردتهم، وهم يتذرعون بيشوع، و"عمليات الإبادة المقدسة" للعمالقة والفلسطينيين» (نلسون ١٩٦٧).

وعلى الرغم من ثبوت صفة العنصرية بالوثائق الدينية المقدسة (لديهم)، والوثائق التاريخية، والممارسات اليومية، فقد تمكن اللوبى الصهيونى فى الولايات المتحدة الأمريكية من استخدام النفوذ الأمريكى، الذى انفرد بالسيطرة على الأمم المتحدة (بعد انهيار الاتحاد السوفيتى)، لكى تصدر قرارًا فى ١٦ ديسمبر ١٩٩١ بإلغاء القرار العادل الصادر فى سنة ١٩٧٥ وذلك بهدف محو صفة العنصرية عن الصهيونية، مع أن الحقائق تثبت أن عنصرية إسرائيل كانت فى ازدياد مع الوقت وأن عمليات التمييز العنصرى والتطهير العرقى والإبادة الجماعية البطيئة كانت مستمرة ومتزايدة نحو الشعب الفلسطينى بشكل لم يسبق له مثيل، وتوسع اليهود فى بناء المستعمرات (المسماة خطأً وخداعًا بالمستوطنات) وعزلها عن الفلسطينيين، واعتبار الفلسطينيين والعرب والمسلمين جميعًا أجناسًا أدنى لا تستحق إلا الدمار والإبادة.

ولابد أن ينتبه العالم كله -وليس العرب وحدهم أو المسلمين وحدهم أو المسيحيين وحدهم - إلى خطورة العنصرية الصهيونية المسلحة نوويًا وكيمائيًا والتى ترتدى ثوب القداسة ، وتتجذر بالنصوص الدينية. ففى سفر العدد (الفصل الحادى والثلاثون، ٧-١٨) حديث عن مآثر بنى إسرائيل الذين هزموا المدينيين «فقاتلوا مدين كما أمر الرب موسى وقتلوا كل ذكر» «وسبى بنو إسرائيل نساء مدين» «وجميع مدنهم مع مساكنهم وقصورهم أحرقوها بالنار». وعندما عادوا إلى موسى: «فسخط موسى على وكلاء الجيش وقال لهم موسى: هل استبقيتم الإناث كلهن؟، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت مضاجعة رجل اقتلوها، وأما إناث الأطفال اللواتى لم يعرفن مضاجعة الرجال فاستبقوهن لكم» (١٤-١٨)

إلى هذا الحد الرهيب يصل السلوك العدوانى لدى اليهود تجاه من يخالفونهم، والأخطر أنهم ينسبون هذا السلوك إلى تعليمات موسى ، على الرغم من أن النصوص الدينية التى وردت فى القرآن قد برأت موسى من كل هذا الهراء، فليس من المقبول أن يمارس شخص عادى كل هذا العدوان الوحشى، فكيف يقوم به نبى كريم جاء رحمة للناس وهداية لهم.

ولننظر كيف مارس اليهود تحريف النصوص لخدمة نواياهم العدوانية، وإصباغ صفة القداسة على أشد السلوكيات وحشية وعنصرية. والمثال الصارخ الذى سنتناوله يصور سلوك يشوع، خليفة موسى، أثناء غزوه لكنعان (فلسطين)،

حيث يمارس بوحشية سياسة التطهير العرقى والإبادة الجماعية. ولست أذكر أننى قرأت فى حياتى نصًا دينيًا أو دنيويًا امتلأ بكل معانى العدوان والكراهية والإبادة كمثل هذا النص الذى يصور "الإبادة المقدسة" التى وقعت فى الضفة الغربية. ولنا أن نتخيل خطورة الشعب التى يعتقد فى مثل هذه النصوص المتفجرة حقدًا وكراهية وعنصرية وعدوانًا، ليس فقط على شعب فلسطين، وإنما على كل البشر من غير اليهود، وإننى أدعو القارئ أن يحاول، أثناء قراءة النص، إحصاء كلمات السيف والقتل فيه ليعرف التركيبة النفسية لهذا الشعب:

«وفتح يشوع فى ذلك اليوم مقيدة وضربها بحد السيف وأبسل ملكها وكل الأنفس التى فيها لم يبق باقيًا فصنع بملك مقيدة كما صنع بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع وجميع إسرائيل معه من مقيدة إلى لِبْنَه وحاربها، فأسلمها الرب أيضًا إلى أيدى إسرائيل هى وملكها فضربوها بحد السيف وقتلوا كل نفس فيها فلم يبقوا فيها باقيًا وفعلوا بملكها كما فعلوا بملك أريحا. وجاز يشوع وجميع إسرائيل معه من لبنه إلى لاخيش ونزل عليها وحاربها فأسلم الرب لاخيش إلى أيدى إسرائيل فافتتحوها فى اليوم الثانى وضربوها بحد السيف وقتلوا كل نفس فيها كما فعلوا بلبنة. حينئذ صعد هوارم ملك جازر لنصرة لاخيش فضربه يشوع هو وقومه حتى لم يبق منهم باقيًا. واجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لاخيش إلى عجلون ونزلوا عليها وحاربوها وافتتحوها فى ذلك اليوم فضربوها بحد السيف وأبسل كل نفس فيها فى ذلك اليوم عينه كما فعل بلاخيش. وصعد يشوع وجميع إسرائيل، معه من عجلون إلى حبرون وحاربوها» (سفر يشوع، الفصل العاشر، ٣٤- ٣٨).

ويتساءل جارودى (جارودى ١٩٩٦):

لماذا لا يحذو -والحال هذه- أى يهودى متدين ومتطرف (أى متمسك بالقراءة الحرفية للتوراة) حذو هذه الشخصيات الجليلة المتمثلة فى موسى ويشوع؟

وألم يذكر سفر العدد، وعندما بدأ غزو فلسطين (كنعان):«فسمع الرب صوت إسرائيل ودفع إليهم الكنعانيين فأبسلوهم ومدنهم» (العدد١، الحادى والعشرون، ٣).

ويكرر سفر تثنية الاشتراع: «وإذا أدخلك الرب، إلهك، الأرض التى أنت صائر إليها لترثها واستأصل أممًا كثيرة.. فأبسلهم إبسالاً (الفصل السابع ١-٢) «فلا يقف أحد بين يديك حتى تفنيهم» (الفصل السابع ، ٢٤).

وهذا هو المصير الذى ينتظر العرب فى فلسطين وحولها إذا لم ينتبهوا إلى هذه التركيبة النفسية المريضة، وربما يفسر عمليات القتل الجماعى التى مارستها عصابات

السيف وحرّموا كل نفس بها. لم يُبق شاردًا، كما فعل بحبرون كذلك فعل بدبير ملكها، وكما فعل بلبنة وملكها. فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها. لم يُبق شاردًا، بل حرم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل. فضربهم يشوع من قادش بَرْنيع إلى غزة وجميع أرض جوشن إلى جبعون. وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة. لأن الرب إله إسرائيل حارب عن إسرائيل ثم رجع يشوع وجميع إسرائيل معه إلى المحلة إلى الجلجال» (سفر يشوع فصل ١٠).

هذا هو طريق يشوع الكامن في وعي إسرائيل يبحث عن الفرصة للخروج إلى حيز التنفيذ، وربما لا يحتمل بعض المتطرفين التأجيل فنرى ذلك المستوطن الذى يقتل الطفل الفلسطينى بأن يدهس رقبته وكأنه يتذكر أمر يشوع لرجاله بأن يدوسوا رقاب ملوك فلسطين حتى الموت، وهذا المتطرف الذى يحرق منزلاً أو مسجدًا يستدعى بذلك إحراق مدن فلسطين على أهلها بواسطة يشوع ورجاله وهم يفعلون ذلك بأمر الرب، لذلك فقتل الفلسطينين عبادة لديهم وإحراق مدنهم إحياء لسنة توراتية، والإبادة الجماعية التى لا تترك شاردًا أو نسمة هى استجابة لروح يشوع، وأن التشدد فى المفاوضات هو تنفيذ لأمر الرب ليشوع بأن يتشدد.

فأى مصير يواجه الفلسطينيين، بل يواجه العالم كله من هذه التركيبة النفسية التى بنيت على أساطير تخطت عدوانيتها كل الحدود التى عرفها البشر قديمًا وحديثًا.

وإذا لم يكن هذا السلوك العدوانى الجماعى الذى يسحق الحياة مرضًا، فماذا يكون المرض إذن؟!

وحين نقرأ هذه النصوص التوراتية التى تكرس العدوان والإبادة تقفز إلى خاطرنا فى الحال نصوصًا قرآنية مضيئة تحدد العلاقة مع الآخر فى وقت الحرب فى إطار من العدل والانضباط، وتضع سياجًا أمام السلوك حتى لا يتفجر العدوان بغير ضابط. يقول تعالى مخاطبًا المؤمنين: ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ (البقرة ١٩٠)

فقصر القتال هنا على دفع العدوان القادم من الآخر ومنع البدء بالاعتداء.

وفى نص قرآنى آخر دعوة مفتوحة إلى السلام:

﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (البقرة ٢٠٨).

﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ (الأنفال ٦١).

١٣ـ الإرهــاب

ونظرًا للتركيبة النفسية للشخصية الصهيونية والتي تتسم بالعنصرية والتعصب والعدوان والميل للاشتباك والصراع، فإن هذه الشخصية الخائفة والمتوجسة والمفتقدة للأمان تبالغ كثيرًا في إظهار قوتها وبطشها كلما واتتها الفرصة لذلك بهدف بث الرعب في قلوب الآخرين إلى أقصى درجة ممكنة. والأمثلة من التاريخ القديم والحديث لا حصر لها، ولكننا نأخذ من القديم مثالاً صارخًا وهو سلوك يشوع عند اجتياحه هو والإسرائيلين لممالك الضفة الغربية، حيث كان يدخل المدينة فيقتل كل من فيها بما في ذلك النساء والشيوخ والأطفال والحيوانات، ويحرق المدينة فلا يترك فيها شيئًا، ثم ينتقل إلى غيرها فيفعل بها ما فعل بسابقتها. وهذا السلوك مثبت في التوراة في سفر يشوع لمن يريد الاطلاع على تفاصيله المرعبة. ولا نكاد نجد في التاريخ البشري ميلاً للإبادة الكاملة والإرهاب الشديد بهذه الكثافة كما ورد في سفر يشوع، ولم تكن هناك ضرورة عسكرية لهذه الإبادة المطلقة لكل شئ حي في المدن التي يحتلونها، ولكن الضرورة هنا كانت نفسية بهدف بث الرعب ليس فقط في قلوب المعاصرين لتلك الأحداث وإنما في قلوب اللاحقين من البشر الذين يقرأون سفر يشوع ويصدقون رواياته الأسطورية.

وبما أننا لا نقصد هنا رصدًا تاريخيًا، وإنما رصدًا نفسيًا فإننا سنقفز فوق المراحل التاريخية التي تؤكد هذا المسلك النفسي الإرهابي لنصل إلى الحاضر كي نرصد هذا السلوك من خلال بعض النماذج للسلوك الإرهابي الصهيوني ممثلاً في أعمال قادتهم المعاصرين:

- لقد تم إلقاء القبض على إسحاق شامير من طرف السلطات البريطانية في ديسمبر ١٩٤١ بتهمة "الإرهاب والتعاون مع العدو النازي". ومثل هذا الماضي لم يمنع إسحاق شامير من أن يصبح رئيس وزراء إسرائيل (جارودي ١٩٩٦).
- ومناحم بيجن قاد عصابات الهاجاناة في عمليات إبادة جماعية للقرى الفلسطينية كان أشهرها مذبحة دير ياسين، ولم يمنعه هذا التاريخ الإرهابي من أن يصبح رئيسًا لوزراء إسرائيل أيضًا، بل ربما تكون هذه الأعمال الوحشية هي جواز المرور للمناصب العليا في إسرائيل.

ولقد صرح بن جوريون نفسه: «أن بيجن ينتمي دون شك إلى النمط الهتلري، فهو عنصري على استعداد لإبادة كل العرب لتحقيق حلمه بتوحيد إسرائيل، وهو مستعد لإنجاز هذا الهدف المقدس، باستخدام كل الوسائل» (هابر ١٩٧٩).

- وفى عام ١٩٤٠، ولإثارة السخط على الإنجليز الذين كانوا قد قرروا إنقاذ اليهود المهددين من هتلر، وذلك باستضافتهم فى جزيرة موريشيس، فإن الباخرة التى كانت تنقلهم وهى ناقلة البضائع الفرنسية "باتريا"، وعند توقفها فى ميناء حيفا يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٤٠، لم يتردد الزعماء الصهاينة من جماعة الهاجاناة (وكان رئيسهم بن جوريون) فى تفجيرها، مما أدى إلى وفاة ٢٥٢ يهوديًا وأفراد طاقم الباخرة الإنجليز (هرتزل ١٩٥٨).
- وفى العراق كانت الطائفة اليهودية (١١٠٠٠٠ شخص فى ١٩٤٨) متأصلة فى البلاد تمامًا. وأعلن حاخام العراق الأكبر خدورى ساسون: «لقد تمتع اليهود والعرب بنفس الحقوق والامتيازات منذ ألف سنة ولم يعتبروا أنفسهم عناصر غريبة أو منفصلة عن هذا البلد». ثم بدأت التصرفات الإرهابية الإسرائيلية فى ١٩٥٠ فى بغداد. وأمام إحجام اليهود العراقيين وترددهم فى تسجيل أنفسهم على قوائم الهجرة إلى إسرائيل، لم تتردد الأجهزة السرية الإسرائيلية ومن أجل إقناعهم بأنهم فى خطر، بإلقاء القنابل عليهم.. وقتل الهجوم على معبد "شيم توف" ثلاثة أشخاص وجرح العشرات.. وهكذا بدأ الخروج الجماعى المسمى "عملية على بابا" (أديعوت أحرونوت، ٨ نوفمبر ١٩٧٧).
- وكلما ذكر اسم شيمون بيريز (وهو من المحسوبين على حمائم حزب العمل) نتذكر مذبحة قانا التى قتل فيها ما يقرب من مائة أغلبهم من النساء والأطفال فى جنوب لبنان راحوا يحتمون بقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام فحصدتهم القنابل والصواريخ فى مشهد لم يتحمله ضمير العالم وقتها وهو يشاهد الأب الذى يحمل أشلاء طفلته على يديه وقد قتل جميع أبنائه فى هذه الغارة الوحشية، والتى لم يكن لها مبرر إلا التخويف والترويع.
- وشارون صاحب السجل الحافل فى صابرا وشاتيلا وغيرها، وسجله ملىء بالقتل والتعذيب والإبادة، وقد كان هذا السجل جواز مروره ليصبح رئيسًا لوزراء إسرائيل.
- وباراك قام بعمليات اغتيال للقيادات الفلسطينية فى لبنان وهو يتخفى فى ثوب امرأة، وكانت هذه العمليات وغيرها جواز مروره لرئاسة وزراء إسرائيل. وقد تعامل مع انتفاضة الأقصى بمنتهى القسوة والوحشية، وقد أدى هذا إلى وصف هذا السلوك من جانب المراقبين الدوليين بأنه "إفراط فى استخدام القوة من جانب إسرائيل"، وفى الحقيقة إن هذا التعبير يحاول تلطيف الموقف، ولكن التسمية الحقيقية هى "ممارسة أقسى درجات العنف لإرهاب الفلسطينيين" وقد شاهدنا قمة

هذا الإرهاب فى قتل الطفل محمد الدرة على مدى ٤٥ دقيقة وهو فى أحضان أبيه، ولو كان القتل وحده هو الهدف لما استغرق تحقيق هذا الهدف دقيقة واحدة تنطلق فيها رصاصة فتصيب هذا الطفل الصغير: وإنما استمرار إطلاق الرصاص على مدى ٤٥ دقيقة ليؤدى إلى الموت البطئ لهذا الطفل أمام أعين أبيه يهدف أساسًا إلى بث أقصى درجات الرعب والإرهاب الذى هو أحد سمات الشخصية الصهيونية.

وإسرائيل فى سلوكها العام لا تتصرف كدولة تحترم القوانين والمواثيق الدولية، فهى دائمًا وأبدًا لا تنفذ قرارات الأمم المتحدة، وتخرج على الإجماع الدولى فلا توقع على اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية، ولا تتورع عن استخدام الاغتيال كوسيلة للتخلص من مناوليها، ولا تتورع عن مهاجمة الدول المجاورة واحتلال أراضيها (مصر وسوريا والأردن ولبنان بالإضافة لفلسطين) . والأغرب من ذلك أن إسرائيل ليس لديها دستور كأى دولة فى العالم، وليس لديها حدود معروفة، ولذلك يصعب عمليًا تسميتها دولة، والأصح إطلاق كلمة "الكيان الإسرائيلى" أو "الكيان الصهيونى" ، حيث أنها لا تمتلك مقومات الدولة فى العرف الدولى.

وعلى الرغم من ضلوع الكيان الصهيونى فى السلوك الإرهابى فإنه يقوم بعملية إسقاط لهذا السلوك على أعدائه من الفلسطينيين والعرب والمسلمين بشكل عام، فقد دأبت وسائل الإعلام التى تدور فى فلك الصهيونية إلى إلصاق تهمة الإرهاب بالعرب والمسلمين فى كل مكان فى العالم، وللأسف الشديد انجرفت بعض وسائل الإعلام العربية والإسلامية فى هذا التيار وراحت تردد نفس مفردات وسائل الإعلام الصهيونية ، ونسيت أن الكيان الإرهابى الأكبر قابع هناك حيث الكيان الصهيونى، وأن أى سلوك عنيف يصدر من هنا أو هناك ما هو إلا رد فعل للبؤرة الإرهابية الصهيونية.

١٤ـ صورة البطل (شمشون)

لكل شعب تصوره الخاص للبطولة، وهذا التصور يوضح إلى حد كبير القيم الأخلاقية ومعالم البطولة لدى هذا الشعب. وإذا أخذنا الشعب اليهودى كمثال لنرى نموذج البطولة لديه فيمكننا أن نعرّف قيم هذا الشعب ومعالم البطولة كما يتصورها.

ومن بين أبطال اليهود نأخذ نموذجًا وردت قصته فى التوراة بتفاصيل دقيقة، وذاع الحديث عنه فى الأدب والفن، لدرجة أنه أصبح معروفًا لعامة الناس. هذا النموذج هو شمشون. ولنبدأ باستعراض بعض جوانب قصته كما وردت فى سفر القضاة بالكتاب المقدس (المصدر: الكتاب المقدس الإصدار الثالث ٢٠٠١ – الطبعة الأولى – دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط):

«وكان رجل من صُرْعة من عشيرة الدانيِّين اسمه مَنُوح وامرأته عاقر لم تلد. فتراءى ملاك الرب للمرأة وقال لها: ها أنت عاقر لم تلدى، ولكنك تحبلين وتلدين ابنًا.. ولا يعْلُ موسى رأسه، لأن الصبى يكون نذيرًا لله من البطن، وهو يبدأ يخلص إسرائيل من يد الفلسطينين» (القضاة فصل ١٣)

وكبر شمشون ووصل إلى سن الزواج وتحكى التوراة قصة زواجه:

«ونزل شمشون إلى يَمْنَةَ، ورأى امرأة فى تمنة من بنات الفلسطينيين. فصعد وأخبر أباه وأمه وقال: قد رأيت امرأة فى تمنة من بنات الفلسطينيين، فالآن خذاها لى امرأة. فقال له أبوه وأمه: أليس فى بنات إخوتك وفى كل شعبى امرأة حتى أنك ذاهب لتأخذ امرأة من الفلسطينيين الغلف؟

فقال شمشون لأبيه: إياها خذ لى لأنها حسنت فى عينى. ولم يعلم أبوه وأمه أن ذلك من الرب، لأنه كان يطلب علة على الفلسطينيين». (سفر القضاة فصل ١٤).

ويظهر من النص السابق عنصرية أبى شمشون وأمه تجاه الفلسطينيين.

وبدلاً من أن يكون الزواج صلة للرحم بين شعبين نجد فى النص التوراتى أن غاية هذا الزواج كانت الانتقام البشع من الفلسطينيين. فقد حدث خلاف بين شمشون ووالد زوجته، ولنرى كيف تعامل شمشون (البطل اليهودى) مع هذا الخلاف:

«فقال لهم شمشون: إنى برىء الآن من الفلسطينيين إذا عملت بهم شرًا. وذهب شمشون وأمسك ثلاث مئة ابن آوى، وأخذ مشاعل وجعل ذَنَبًا إلى ذَنَب، ووضع مَشْعَلاً بين كل ذَنَبَيْن فى الوسط، ثم أضرم المشاعل نارًا وأطلقها بين زروع الفلسطينيين ، فأحرق الأكداس والزرع وكروم الزيتون. فقال الفلسطينيون: من فعل هذا؟ فقالوا: شمشون صِهرُ التِّمنىِّ، لأنه أخذ امرأته وأعطاها لصاحبه. فصعد

الفلسطينيون وأحرقوها وأباها بالنار. فقال لهم شمشون: ولو فعلتم هذا فإنى أنتقم منكم، وبعد أكف. وضربهم ساقًا على فخذٍ ضربًا عظيمًا... ولما جاء إلى لَحْي، صاح الفلسطينيون للقائه. فحل عليه روح الرب... ووجد لَحْيَ حمار طريًا، فمد يده وأخذه وضرب به ألف رجل" (سفر قضاة فصل ١٥).

ولنتأمل رغبة الانتقام الشديدة داخل هذه النفس حيث يتعامل مع الخلاف مع أصهاره بأن يطلق ثلاث مئة ثعلب مربوط فى ذيولها مشاعل من نار لتحرق مخازن وزروع وكروم الفلسطينيين (وهكذا يفعل اليهود الآن حين يهدمون المنازل بالبلدوزرات ويجرفون أراضى الفلسطينيين ويبيدون أشجار العنب والزيتون، ويحرقون المسجد الأقصى وكأنما هم يتتبعون نموذج شمشون فى التعامل مع الفلسطينيين).

وعلى الرغم من استدراك الفلسطينيين لخطأ صهر شمشون وخطأ زوجته (فصعد الفلسطينيون وأحرقوها وأباها بالنار)، إلا أن شمشون لم يكف عن عدوانه بل واصل انتقامه بأن قتل ألف رجل من الفلسطينيين بعظمة حمار (وكل ذلك يحدث بمباركة من الرب!!).

ثم يمارس شمشون حياة البلطجة والفساد كما يتضح من النص التالى:

«ثم ذهب شمشون إلى غزة، ورأى هناك امرأة زانية فدخل إليها. فقيل للغزيّين: قد أتى شمشون إلى هنا؟ فأحاطوا به وكمنوا له الليل كله عند باب المدينة. فهدأوا الليل كله قائلين: عند ضوء الصبح نقتله. فاضطجع شمشون إلى نصف الليل وأخذ مصراعى باب المدينة والقائمين وقلعهما مع العارضة، ووضعها على كتفيه وصعد بها إلى رأس الجبل الذى مقابل حبرون» (سفر القضاة- فصل ١٦).

ثم تزوج شمشون دليلة ومارس معها كل أنواع الكذب والتحايل، وفعلت هى أيضًا معه مثل هذا إلى أن اكتشفت أن سر قوته فى شعره فحلقت له شعره ففارقته قوته وفارقه الرب، وسجنه الفلسطينيون، ولكن شمشون ينهى حياته بهدم السجن على نفسه وعلى الفلسطينيين فى عملية انتحارية أسطورية يصورها النص التوراتى كالتالى:

«فدعا شمشون الرب وقال: يا سيدى الرب. اذكرنى وشددنى يا الله هذه المرة فقط، فانتقم نقمة واحدة عن عَيْنَيَّ من الفلسطينيين. وقبض شمشون على العمودين المتوسطين اللذين كان البيت قائمًا عليهما، واستند عليهما الواحد بيمنه والآخر بيساره. وقال شمشون: لتمت نفسى مع الفلسطينيين. وانحنى بقوة فسقط البيت على الأقطاب وعلى كل الشعب الذى فيه، فكان الموتى الذى أماتهم فى موته أكثر من الذين أماتهم فى حياته» (سفر القضاة، فصل ١٦).

وهكذا عاش شمشون (بطل إسرائيل) للانتقام من الفلسطينيين بقتلهم في حياته ولحظة مماته.

ولم يتوقف النموذج الشمشوني في البطولة لدى الإسرائيليين فقد مارسوه عام ١٩٤٨ حين كانوا يبيدون القرى الفلسطينية، ومارسه مناجيم بيجن رئيس وزراء إسرائيل الأسبق حين أباد هو وجنود "الأرجون" قرية دير ياسين بكل سكانها (٢٥٤ نسمة) في ٩ أبريل ١٩٤٨ لكي يفر العرب العزل مذعورين.

والنموذج الشمشوني كان أيضًا وراء حرق المسجد الأقصى حين اندفع أحد المتطرفين من اليهود وأشعل النار في المسجد.

والنموذج الشمشوني تجسد في باروخ جولدشتين وهو مستوطن من أصل أمريكي فأمسك برشاش وقتل أكثر من سبعة وعشرين فلسطينيًا وجرح أكثر من خمسين، وهم يصلون في الحرم الإبراهيمي، وكان باروخ عضوًا في جماعة متطرفة أسسها اريييل شارون.

والنموذج الشمشوني كان أمام اريييل شارون وهو ينفذ مذبحة صابرا وشاتيلا.

فالمتطرفون اليهود يمارسون الإبادة والحرق والقتل بهذا الشكل الجماعي البشع وهم مرتاحو الضمير لأنهم ينفذون الوصايا التوراتية ويحققون نماذج البطولة فيها بالانتقام من الفلسطينيين، وكل ذلك يفعلونه بأمر الرب..!! وبمباركة من الرب..!!

١٥ ـ التحريف

هناك الكثير من الأدلة التاريخية والنصوص الدينية التى تتحدث عن هذا السلوك لدى اليهود وهو التحريف. ولكننا سنعطى اهتمامًا خاصًا بشهادة أحد علماء النفس اليهود وهو عالم النفس الشهير فرويد لكى يحلل لنا هذه الظاهرة النفسية لدى اليهود.

يقول فرويد:

«وليس بوسع أى مؤرخ أن ينظر إلى القصة التى ترويها التوراة عن موسى والخروج، أكثر من أنها أسطورة دينية، قلبت إحدى الروايات البعيدة لمصلحة اتجاهاتها، ولسنا نعرف ما الذى كانت عليه الرواية الأصلية. أما ما كانت عليه الاتجاهات التى أعملت الانحراف فى الرواية، فهذا ما نحب أن نخمنه، ولكننا نستبقى فى الظلام بحكم جهلنا للأحداث التاريخية» (فرويد ١٩٥٥).

ويكمل فرويد:

«إن الشعب اليهودى تخلى عن ديانة موسى بعد وقت معين، ولا نستطيع أن نقول ما إذا كان قد فعل ذلك كلية أو أنه استبقى بعضًا من أفكارها. وفى تقبل الافتراض الذى يقول بأنه خلال الفترة الطويلة من القتال من أجل أرض كنعان والنضالات مع الشعوب المستقرة هناك، لم تختلف ديانة يهوه كثيرًا عن عبادة البعليم الآخر، ونقف على أرض تاريخية، برغم كل المحاولات المغرضة اللاحقة لإخفاء هذا الوضع الزائف للأمور، فديانة موسى رغم ذلك لم تفن، وعاش نوع من ذكراها مخفيًا ومشوهًا، ولكنه عاش ربما بتأييد أفراد من طبقة الكهنة من خلال النصوص القديمة» (فرويد ١٩٥٥).

ولازال فرويد يقف متأملاً ومتشككًا فى الروايات الدينية التى وضعها اليهود بعد موت موسى بمئات السنين فيقول:

«كان لابد من مرور وقت طويل قبل أن يطور المؤرخون الحقيقة الموضوعية كهدف أمثل. ولقد شكلوا فى أول الأمر رواياتهم طبقًا لحاجاتهم وميولهم التى كانت اللحظة تفرضها، بضمير مستريح، كما لو كانوا لم يفهموا بعد معنى التزييف. وكنتيجة لذلك بدا اختلاف يتطور بين النسخة المكتوبة والرواية الشفاهية ـ أى التراث ـ لنفس الموضوع. وما طمس أو غيِّر فى النسخة المكتوبة كان من الممكن جدًا أن يحفظ دون إتلاف فى التراث. وكان التراث هو التنمية وهو فى نفس الوقت النقيض للتاريخ المكتوب» (فرويد ١٩٥٥).

وفرويد فى كل ما سبق يؤكد دور التغيرات فى التراث اليهودى وهو ما

أكده القرآن فى أكثر من آية من آياته، وهذه التغيرات الدائمة هى التى طمست معالم اليهودية.

يقول تعالى:

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ (البقرة ٧٩).

ويقول تعالى: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ (البقرة ٧٥).

وكان الدافع النفسى وراء تحريف التراث الدينى اليهودى هو المكاسب الحاضرة حيث وضعوا النصوص التى تخدم المصالح الذاتية لهم، وقد أتاح لهم هذه الفرصة مرور حوالى ألف سنة بعد موت موسى عليه السلام، حيث بدأوا فى كتابة التوراة فى هذا الوقت الحاضر فغيروا وبدلوا حسب أهوائهم ومصالحهم فبدت التناقضات وبدت النصوص الأسطورية واضحة فى كثير من المواضع. وهذا بالطبع لا ينطبق على كل نصوص التوراة، فالمتأمل فيها يجد أن هناك نصوصًا تتفق مع الأحداث الثابتة تاريخيًا وتتفق مع بعض الروايات التى جاءت فى الكتب الدينية اللاحقة.

وقد جاء المسيح ليصحح هذا التحريف وهذا التزييف، واصطدم ذلك بمصالح اليهود وتوجهاتهم، وظل المسيح يبلغ تعاليمه الإنسانية السمحة للناس بعيدًا عن عنصرية اليهود وتعصبهم، لذلك تآمر اليهود وحاولوا قتله. ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى التراث الدينى المسيحى محاولين تغييره وتبديله بما يتفق مع أساطيرهم ومصالحهم وأهوائهم.

وبعد ذلك جاء الإسلام دعوة ربانية لكل البشر دون تمييز ودون تفرقة تقوم على اللون أو الجنس، ولذلك اصطدم به اليهود وحاولوا وقف مسيرته فلم يستطيعوا، وأيضًا لم يكن بوسعهم تحريف آيات القرآن حيث أحيطت هذه الآيات بضمانات كثيرة تجعل من الصعب تحريفها وقد كتب القرآن فى حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وحفظه الكثير من صحابته وتوارثته الأجيال موثقًا بكافة الوسائل، ولذلك عمد اليهود إلى دس أساطيرهم ومروياتهم فى بعض كتب التفسير، وهذه المرويات هى ما تسمى بالإسرائيليات، وحاولوا أيضًا ادعاء بعض الأحاديث على أنها وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن علماء التفسير وعلماء الحديث كانوا على وعى كامل بهذا الدس اليهودى واستطاعوا التعرف عليه وفصله بسهولة عن النصوص الأصلية ولاشك أن الذى يحرف النصوص الدينية ذات القداسة الربانية يكون أكثر إقدامًا على تحريف غيرها من النصوص، وهذا ما حدث من تحريف لنصوص تاريخية وأدبية ولنصوص المعاهدات والمواثيق، مما يؤكد هذه الصفة المتأصلة فى الشخصية الصهيونية.

١٦ - المراوغة

هى خلق أصيل من أخلاق بنى إسرائيل يسهل رؤيته بالنظر إلى أى مرحلة تاريخية عاشوها، ومن شدة بروز هذا الخلق سميت أكبر سورة فى القرآن باسم سورة البقرة نسبة إلى قصة مراوغة اليهود لموسى حين أمرهم بذبح بقرة، ولنتأمل النص القرآنى:

﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى. قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون* قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها. قال إنه يقول أنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين* قالوا ادعوا لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون* قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ (البقرة ٦٧- ٧٠).

وفى هذا النص القرآنى يتضح مدى المراوغة أمام أمر شديد البساطة لم يكن يستدعى كل هذا الجدال، ولكنها الرغبة الداخلية فى التفلت من تنفيذ الأمر ومحاولة إيجاد معاذير للتهرب.

وإذا قفزنا عبر التاريخ إلى السلوك الصهيونى المعاصر لوجدنا أنه من السهل التعرف على هذه الصفة وذلك بتتبع مسار المفاوضات التى تجرى مع الكيان الصهيونى وكيف أنهم يتلاعبون بالكلمات فيصنعون كلمة "أرض" مكان "الأرض" فى قرار ٢٤٢ الصادر عن الأمم المتحدة والذى يقضى بانسحاب اليهود من الأراضى العربية التى احتلوها عام ١٩٦٧، وبسبب هذا التلاعب اللفظى ظلوا يراوغون أكثر من ثلاثين سنة حول الفرق بين كلمة "أرض" و " الأرض". ونجدهم فى كل المفاوضات يثيرون قضايا فرعية وجزئية يضيعون فيها الوقت كى تبتعد المفاوضات عن جوهر المشكلات المطروحة.

وربما بسبب هذا السلوك (وسلوكيات أخرى) ورد الحديث عن اليهود وبنى إسرائيل بشكل مستفيض فى القرآن، لأنه كلما استفحل المرض وتغلغل كان الإلحاح فى العلاج واستمراره مطلوبًا.

والمراوغة صفة مركزية يتفرع عنها صفات أخرى؛ مثل التلوُّن والتقلب والتغير بحيث أنك تحار فى هذا الكيان الزئبقى ولا تجد سبيلاً للتعامل معه على أى أساس ثابت.

ويتبع صفة المراوغة أيضًا صفة نقض العهود وهى صفة لازمة لهم فلم يثبت

أن اليهود التزموا عهدًا في أي مرحلة تاريخية. والعصر الحديث يؤكد هذه الصفة بشكل شديد الوضوح، فكلما توصل الفلسطينيون إلى اتفاق أو معاهدة مع حكومة إسرائيلية جاءت نفس الحكومة أو حكومة غيرها فنبذت ذلك الاتفاق وكأنه لم يكن، وهم لا يعدمون اتخاذ الذرائع والعلل للتهرب مما التزموا به.

وخلط الحق بالباطل خلق تابع للمراوغة:

﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ (آل عمران ٧١).

والمراوغة تسمح باللعب والمناورة حتى بالعقيدة:

﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين أمنوا وجه النهار وكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾ (آل عمران ٧٢).

﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم* وإن منهم لفريقًا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ (آل عمران ٧٧، ٧٨).

الفصل الثالث

انعكاسات سمات الشخصية الصهيونية في التعامل مع الآخر عبر العصور

١- الشخصية الصهيونية.. والاختراق الفيروسى

من الحقائق المعروفة فى علم الأحياء أن الفيروس كائن دقيق جدًا لا يرى إلا بميكروسكوب خاص نظرًا لصغر حجمه. والفيروس لا يستطيع الحياة بذاته وإنما يظل كامنًا وكأنه جسم صغير غير حي، حتى إذا استطاع ان يخترق جدار خلية حية فإنه ينشط ويتوجه مباشرة إلى نواة هذه الخلية فيخترقها ويغير برنامج التشغيل فيها فتنتج مواد بروتينية تلائم حياة الفيروس لكى ينمو ويتكاثر. وبما أن نواة الخلية هى مركز الحياة فيها فإن بقية أجزاء الخلية تضعف وتضمر لحساب حياة الفيروس الدخيل. وإذا استمر هذا الوضع فإن الخلية ربما تموت بالكامل ولكن بعد أن يكون الفيروس قد استغل إمكانياتها ومخزونها لتكاثره. والاحتمال الثانى هو أن تفيق الخلية وتنتبه إلى هذا الكائن الدخيل وتبدأ فى محاصرته ومقاومته وتسترد عافيتها مرة أخرى.

وقد انتقل هذا المفهوم من علم الحياة إلى علم الكومبيوتر حيث استخدم لفظ "الفيروس" للدلالة على برامج متخفية تتسلل إلى أقراص الكومبيوتر فتمسح برامج وتضيف برامج أخرى فيضطرب النظام لحساب البرامج الدخيلة.

ولو أردنا تطبيق هذا المفهوم فى علم الاجتماع فسوف نجد النموذج اليهودى أقرب مثال لهذا الاختراق الفيروسى، فاليهود فى كل مراحل التاريخ وفى كل المجتمعات كانوا يعيشون أقلية فى مناطق معزولة ولا يذوبون أبدًا فى أى مجتمع، ولكنهم يتحينون الفرص حتى إذا وجدوا ثغرة أو نقطة ضعف تسللوا منها إلى مراكز التأثير الاجتماعى (السياسة، الإعلام، المال، الجنس... إلخ) وبدءوا فى تغيير البرنامج الاجتماعى لصالحهم وبذلك يسخرون كل الإمكانات والطاقات لصالح بقائهم ونموهم وازدهارهم، وبالطبع يتم ذلك على حساب الجسد الاجتماعى الذى تم اختراقه. ويستمر هذا الوضع إلى أن تنفذ إمكانات هذا الجسد الاجتماعى أو يتحلل فيتركه الفيروس اليهودى ويبحث عن جسد آخر يخترقه ويبرمجه ويسخره. وربما يسأل سائل: ولماذا يسمح الجسد الاجتماعى بهذا الاختراق الفيروسى اليهودى إذا كان ليس فى صالحة؟.. والجواب: أن هذا الأمر ليس سهلاً فاكتشاف الفيروس وهو يخترق الخلية الاجتماعية يتم بشكل دقيق لا ينتبه إليه الكثير، وهو يقنع أجزاء الخلية

المخترقة بأنه جاء لمصلحتهم، وإذا لم يفلح فى ذلك يستخدم سياسة العصا والجزرة، فإما أن تستسلم للجزرة (وهى وهمية) وإما أن تضرب بالعصا الغليظة.

وقد حدث فى بعض فترات التاريخ أن البنيان الاجتماعى انتبه لهذا الاختراق الفيروسى اليهودى وكان هذا البنيان الاجتماعى فى حالة من الصحة والمناعة بحيث استطاع أن يحاصر هذا الفيروس ويلفظه. وأقرب مثال لذلك اليهود فى يثرب فقد كانوا يخترقون قبائل الأوس والخزرج ويسخرون إمكاناتهم لصالح اليهود ويستخدمون المال والسلاح والجنس فى سبيل تحقيق ذلك. وإذا استعصى عليهم الأمر أثاروا الفتن وأشعلوا الحروب وحركوا الضغائن، وهم فى كل الأحوال مستفيدون. وعندما بدأ المجتمع المسلم يتكون فى المدينة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبدأت القيم الإسلامية تحدد ملامح هذا المجتمع المتماسك لم يكن لليهود (بأخلاقياتهم الفيروسية) قدرة على اختراقه، فتمت بعض المعاهدات بين المجتمع المسلم الفتى وبين جماعات اليهود لتنظيم العلاقة بينهما طبقًا للواقع الجديد. ولكن طبائع اليهود (التى لم ولن تتغير) لم تتحمل ذلك فحاولوا الغدر والاختراق والدس إلى أن تم طرد بنى قينقاع، ولم يعتبر الآخرون فاستمروا فى نفس الطريق حتى تم طرد بنى النضير، ولم يعتبر الآخرون حتى كان الغدر الكبير من بنى قريظة وحدث لهم ما حدث بعد غزوة الخندق ونالوا جزاءهم الذى يستحقون، وبهذا استطاع المجتمع المسلم أن يلفظهم بعدما تأكد استحالة التعايش معهم نظرًا لصفاتهم الفيروسية الاختراقية الانتهازية العدوانية.

وهم مازالوا يمارسون هذا الأسلوب الاختراقى الفيروسى حتى هذا اليوم وقد اكتسبوا خبرة طويلة على مدى التاريخ حين استطاعوا اختراق دولاً كبيرة وحضارات ضخمة وتسخير كل هؤلاء لخدمة مصالح اليهود.

ولو تأملنا اختراقهم للخلية العربية فسنجد التشابه هائلاً مع الاختراق الفيروسى الذى تحدثنا عنه من قبل، فقد كانوا قله بالمقارنة بالمجتمع العربى الكبير، واتجهوا إلى قلب هذا المجتمع وتسللوا إلى مراكز التأثير وبرمجوا العقول (أو بعض العقول) فأفرزت مذاهب وتيارات غريبة على المجتمع العربى المسلم فظهرت البعثية والشيوعية والاشتراكية والقومية والعلمانية، وكان هذا التغيير تمهيدًا لاختراق أكبر حين تؤتى هذه التيارات ثمارها فى إضعاف الجسد العربى وتشتيت قواه، حيث

يستطيع الفيروس اليهودى توجيه وتسخير كل إمكاناته لصالح التكاثر والنمو، ولتغيير الخريطة بالكامل ويمحى العالم العربى الإسلامى ويستبدل بخريطة وبرنامج آخر يطلق عليه الشرق الأوسط حيث تسود مفاهيم جديدة وعلاقات جديدة وقيم جديدة طبقًا للبرنامج الفيروسى اليهودى.

وفكرة اللوبى هى تجسيد للاختراق الفيروسى الذى يجيده اليهود الصهاينة، وأقوى لوبى معترف به فى الولايات المتحدة هو "أيباك" (لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية).

واللوبى هو مجموعة من اليهود ذوى القدرة على الرصد والملاحظة والتخطيط والتنظيم والتوجيه، فهم يقومون بدراسة ظروف البلد الذى يعيشون فيه ويعرفون مصادر القوة والضعف فيه، ومن ثم يعملون على توجيه قرارات وأفعال السياسيين وأصحاب الرأى، وفى نفس الوقت يعملون على تكييف الرأى العام بما يخدم فى النهاية مصالح اليهود.

يقول بول فندلى فى كتاب " يتجرؤن على الكلام" ص ٩٢: «إن تأثير رئيس الوزراء الإسرائيلى على السياسة الخارجية للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط يفوق بكثير تأثيره فى بلده». والسبب فى ذلك أن فى الولايات المتحدة ستة ملايين يهودى، وهم بهذا العدد يعتبرون أقلية عددية، ولكنهم أقلية منظمة تؤثر فى الوضع الانتخابى لرئيس الجمهورية ولأعضاء مجلس الشيوخ والكونجرس. ليس هذا فقط ولكن وسائل الإعلام التى يتحكم فيها اليهود والشركات الكبرى والبنوك تقوم بدعم أحد المرشحين إعلاميًا وماليًا. وعن قوة اللوبى الصهيونى والصوت الانتخابى اليهودى صرح الرئيس الأمريكى ترومان نفسه أمام مجموعة من الدبلوماسيين فى عام ١٩٤٦:

«آسف أيها السادة، ولكن علىّ أن استجيب لمئات الآلاف من الناس الذين ينتظرون فوز الصهيونية، وليس لدى آلاف العرب من بين ناخبى» (إيدى ١٩٥٤).

ويشهد رئيس الوزراء الأسبق كلمنت على ذلك بقوله: «إن سياسة الولايات المتحدة فى فلسطين يشكلها الصوت الانتخابى اليهودى، والإعانات المقدمة من العديد من الشركات اليهودية الكبرى».

وكان اللوبى الصهيونى (ومازال) يستخدم قوة ونفوذ الولايات المتحدة كأقوى دولة فى العالم لتحقيق مصالح اليهود، وهذا ما فعله فى حرب الخليج الثانية

حيث دفع بالولايات المتحدة لتدمير العراق. فقد قامت مجموعتان من مجموعات الضغط إلى دفع الولايات المتحدة إلى شن هذا العدوان (بيرفيت ١٩٩٠):

١-اللوبى اليهودى، لأن القضاء على صدام حسين سيزيل خطر أقوى بلد عربى.

٢-لوبى رجال الأعمال، الذى كان يعتقد أن الحرب سوف تنعش الاقتصاد الأمريكى.

والأمثلة على أن اللوبى الإسرائيلى قد نجح فى فرض موقف مضاد للمصالح الأمريكية -ولكنه مفيد لسياسة إسرائيل- لا حصر لها، وهناك من الأدلة ما يشير إلى الكيفية التى جعلت مطالب الإسرائيليين تتقدم على مصالح الولايات المتحدة وهاك بعض الأمثلة:

كان رئيس لجنة الشئون الخارجية فى مجلس الشيوخ الأمريكى، السناتور فولبريت، قد قرر مثول القادة الصهاينة الرئيسيين أمام لجنة للكشف عن أنشطتهم السرية. وأوجز نتائج تحقيقه فى مقابلة أجراها مع تليفزيون C.B.S فى أكتوبر ١٩٧٣ قائلاً: «إن الإسرائيليين يتحكمون فى سياسة الكونجرس ومجلس الشيوخ»، وأضاف: «إن زملاءنا فى مجلس الشيوخ وبنسبة ٧٠٪ منهم لا يحددون مواقفهم إلا تحت ضغط اللوبى وليس برؤيتهم الخاصة القائمة على مبادئ الحرية والقانون».

وفى الانتخابات التالية فقد فولبريت مقعده فى مجلس الشيوخ، ومنذ ذلك التاريخ، زاد اللوبى من سيطرته على السياسة الأمريكية. وقد وصف بول فندلى اللوبى الصهيونى وقوته فقال: «هذا الفرع الحقيقى للحكومة الإسرائيلية يتحكم فعلاً فى الكونجرس ومجلس الشيوخ ورئاسة الجمهورية ووزارة الخارجية والبنتاجون (وزارة الدفاع)، وكذلك فى وسائل الإعلام، كما أنه يمارس نفوذه فى الجامعات والكنائس» (جارودى ١٩٩٦).

وتحت ضغط اللوبى الصهيونى استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية حق الفيتو فى الأمم المتحدة أكثر من ثلاثين مرة لصالح إسرائيل لدرجة أن بعض اليهود انزعجوا من هذا الانقياد الأمريكى الأعمى ورأوا فى ذلك عزلاً للولايات المتحدة وتقليلاً من مصداقيتها كوسيط وحيد فى النزاع العربى الإسرائيلى (جريدة النيويورك تايمز ١٥/٥/١٩٩٥).

وكل الوسائل بالنسبة للوبى الصهيونى ملائمة وجيدة، بدءًا من الضغط

المالى وحتى الابتزاز الأخلاقى، مرورًا بمقاطعة وسائل الإعلام والناشرين، والتهديد بالقتل. وفى ذلك يقول فندلى:

«إن أى إنسان ينتقد سياسة إسرائيل، عليه أن يتوقع عمليات انتقام موجعة لا تنتهى، وحتى فقدان سبل معيشته بواسطة ضغوط اللوبى الإسرائيلى. والرئيس نفسه يخاف منه، والكونجرس يخضع لكل مطالبه، وتحرص أعرق الجامعات على إبعاد كل ما يتعارض معه فى برامجها، وتستسلم وسائل الإعلام كما يخضع القادة العسكريون لضغوطه» (جارودى ١٩٩٦).

وفى فرنسا يوجد لوبى قوى لمناصرة إسرائيل، ومركزه الرابطة الدولية لمناهضة العنصرية ومعاداة السامية "ليكرا"، وهذا اللوبى له تأثير ضخم على أصحاب القرار السياسى وعلى أجهزة الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية وعلى القطاعات الاقتصادية من شركات وبنوك، ويقومون بالتلاعب بالرأى العام وتوجيهه لمصلحة إسرائيل.

ونفس الشىء يحدث فى برلين وفى كثير من العواصم الأوروبية الأخرى.

وقد يحلو لزعماء الصهاينة أن يبالغوا فى حجم وتأثير اللوبى الصهيونى وذلك ليبثوا الرعب فى قلوب الآخرين وليهددوا من يقف فى سبيل تحقيق أهدافهم. ورغم وعينا بهذا التهويل إلا أننا لا نستطيع أن نغفل دور وتأثير اللوبى الصهيونى المرتبط بفكرة الاختراق الفيروسى التى هى من سمات الشخصية الصهيونية على مر التاريخ.

٢ - الشخصية الصهيونية وحتمية الصراع

إن لكل شخصية على اختلاف أنماطها وسماتها مفتاحًا، إذا اهتدينا إليه أمكننا قراءة وتفسير أقوال وأفعال هذه الشخصية، وأمكننا أيضًا التنبؤ باستجابات هذه الشخصية فى المواقف المستقبلية، وهذا هو الهدف الرئيسى من دراسات وتقسيمات الشخصية فى علم النفس.

والشخصية الصهيونية رغم ما تتسم به من مكر ودهاء وخبث إلا أن البحث عن مفاتحها ليس صعبًا، بل ربما نكتشف أنها شخصية قريبة المنال من القراءة والتفسير والتنبؤ؛ وذلك نظرًا لثبات سماتها على مدى الزمن وعدم ذوبانها فى أى مجتمع بشرى آخر مهما طال اختلاطها به.

ومفتاح هذه الشخصية هو عقدة الاضطهاد، ونقصد بكلمة "عقدة" أن عقدة الاضطهاد فى هذه الشخصية متغلغلة فى أعماقها وليست مجرد فكرة وقتية طارئة. وبما أنها عقدة فإنها عصية على الحل وقد فشلت محاولات حلها على مدار التاريخ القديم والحديث على السواء.

فاليهود دائمًا يعيشون فى مجتمعات مغلقة ولا يذوبون أبدًا فى أى مجتمع مهما طال بهم الزمن فدائمًا هم أحياؤهم وشوارعهم وحواريهم وفوق ذلك معتقداتهم وعنصريتهم ولن نخوض فى أسباب ذلك فإن شرحه يطول. وإنما الذى يهمنا هو رصد هذه الظاهرة النفسية لدى اليهود وهى ظاهرة الشعور بالاضطهاد والخوف من الاضطهاد، فيتبع ذلك انكماش حسى هم بأن يتجمعوا فى حصون أو أحياء خاصة بهم، ثم يجدون أن ذلك غير كاف لحمايتهم فيتجهون إلى امتلاك ناصية القوة فى المجتمع الذى يعيشون فيه فيعمدون إلى مصادر الثروة ومصادر السلاح ومصادر التأثير المعنوى، ولا نحتاج إلى أدلة كثيرة على ذلك وإنما نسوق للمتشكك أدلة عصرية قائمة بأن ندعه يسأل عن أصحاب البنوك والشركات العملاقة وتجار السلاح ومالكى وكالات الأنباء والقنوات التليفزيونية والإذاعية، ولن يجد هذا المتشكك صعوبة فى رؤية العقل اليهودى والأصابع اليهودية تحرك هذه المؤسسات.

وربما يقول قائل: إن ذلك يرجع إلى أن اليهود يتمتعون بقدرات عقلية فائقة، ولكن الواقع العلمى لا يؤيد هذا الاستنتاج، فالقدرات العقلية الفطرية تكاد تكون متكافئة فى كل الأجناس وإنما تساعد الظروف على نموها وازدهارها أو العكس.

ونعود فنقول إن عقدة الاضطهاد هي التي تدفع اليهود دائمًا إلى السعي الحثيث نحو امتلاك ناصية القوة والتأثير، وهذا هو نفس السبب الذى يجعلهم منبوذين مطاردين على مدى التاريخ، فهم الشعب الوحيد الذى لم يمتلك أرضًا ثابتة تحت قدميه، ولا يرجع ذلك إلى ظلم الآخرين لهم فى كل العصور وإنما يرجع إلى طبيعتهم الاضطهادية المتوجسة التى تفترض أن لا بقاء لها عن طريق الامتزاج والعيش بسلام مع الآخرين وإنما يرتبط بقاؤها بالحذر وامتلاك القوة والتجمع وفى نفس الوقت تفريق الآخرين والدس بينهم ومحاولة إهلاكهم.

والمتأمل للتاريخ يلمح ذكاء "نعيم بن مسعود" ذلك الرجل الذى قال له الرسول صلى الله عليه وسلم فى قمة غزوة الأحزاب "خذ عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة" هذا الرجل تلمس عقدة الاضطهاد وعدم الأمان لدى يهود بنى قريظة الذين هموا بخيانة المسلمين بانضمامهم لمعسكر الأحزاب، فأيقظ فيهم هذا الرجل صفة عدم الأمان أيضًا لمعسكر الأحزاب فراحوا يطلبون منهم رهائن حتى لا يتركوهم فريسة لمحمد عليه الصلاة والسلام فى حال هزيمتهم ، وكانت هذه نقطة إجهاض التحالف الشيطانى. إذن فهذه شخصية اليهود، ولن يعجز أى باحث عن أن يجد آلاف الأدلة على هذه العقدة الاضطهادية. بل إنهم إن لم يضطهدهم أحد اختلقوا أساطير الاضطهاد أو ضخموا أحداث الاضطهاد التى كانوا هم السبب فيها والمحرك الأول لها، والمثال على ذلك الاضطهاد النازى لهم وتضخيمهم لذلك الحدث إلى حد يقترب من الأساطير.

وعقدة الاضطهاد تعتبر بمثابة احتياج نفسى للشخصية اليهودية لأنها تضمن لها التماسك والبقاء وسط عالم يعتبرونه عدوانيًا على كل يهودى. وهذا الوضع بالتالى يجعل أصابع اليهود دائمًا على الزناد، وتجعلهم أكثر أهل الأرض تطرفًا وعدوانية.

وقد حدث إزاحة لكل عقد اليهود بما فيها (وعلى رأسها) عقدة الاضطهاد نحو فلسطين، ولهذا يدفع الفلسطينيون ثمن العقد اليهودية المتراكمة على مر التاريخ ويعانون منها.

ونظرًا لهذه التركيبة النفسية ، فإن اليهود يفرضون على غيرهم الصراع ويدفعون إليه دفعًا بوعى أو بغير وعى حتى لا نكاد نذكر أنهم استطاعوا التعايش

السلمي مع المجتمع الإنساني في أي مرحلة من مراحل التاريخ. ولن نعدم الأمثلة التاريخية العديدة لتأكيد هذه الملاحظة ، ولكننا نلفت النظر إلى سلوكهم الحاضر تجاه عملية السلام مع الفلسطينيين والعرب ، فكلما تحققت أى خطوة على هذا الطريق يسارعون بالتخلي عنها والعودة إلى دائرة الصراع من جديد، رغم كل الجهود والتنازلات التي تقدم لهم.

٣ - العداء للسامية (اللاسامية)

الساميون: نسبة إلى سام بن نوح، ويطلق على القبائل البدوية التى كانت تسكن فى فلسطين وشبه الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين والأردن. واشتهر التعبير فى التاريخ المعاصر نسبة إلى العداء للسامية، على أن تعبير العداء للسامية كان يقصد به أصلاً العداء لليهود (الحفنى ١٩٧٣).

ولفظة "اللاسامية" التى شاعت بين العرب هى ترجمة غير دقيقة للكلمة الأوربية "أنتيسميتيزم" التى تعنى حرفيًا "المذهب المعادى للسامية". أما من حيث المقصود الفعلى منها فهو "معاداة اليهود" أو "نبذ اليهود من المجتمع" أو "مناهضة اليهود"، لأنهم الممثلون الوحيدون للجنس السامى فى أوربا، على حسب الدعوى العنصرية التى أشاعوها هم عن أنفسهم. أما الخطأ والمغالطة فى استعمالها فإنهما يأتيان غالبًا من جانب اليهود. فاليهودى يعيش فى عقدة الشعور بالاضطهاد بسبب عنصريته، ويتخيل أن كل ما يحل به من مشاكل فى علاقاته بالأمم الأخرى إنما يرجع إلى أنه يهودى، يكرهونه لهذا السبب، ويحقدون عليه، ويسعون دائمًا لإيذائه، لأنهم مصابون بداء "اللاسامية" ومن أجل هذا كانت تلك الكلمة أكثر رواجًا لدى اليهود منها عند غيرهم (ظاظا ١٩٩٠).

والغريب أن اليهود لم يراجعوا أنفسهم مرة ويسألوا : لماذا يجمع البشر على التعامل معنا بهذه الطريقة ؟!... وبدلاً من أن ينظروا فى تاريخهم وسلوكهم الذى عرضهم لهذا المعاملة من جميع الأمم فى الأرض، فإنهم يستريحون إلى إسقاط عدوانيتهم وتعصبهم على الأمم الأخرى فيبتدعون فكرة "العداء للسامية" ويصدقونها ويقنعون الآخرين بها.

ولا نكاد نجد شعبًا من شعوب الأرض يحاول أن يحمى نفسه من الكراهية باستصدار قانون يمنع كارهيه من التعبير عن مشاعرهم ضده إلا الشعب اليهودى فى ظل القومية اليهودية (الصهيونية)، فبدلاً من تغيير صفاته وسلوكياته التى استدعت تلك الكراهية فى مراحل تاريخية عديدة، يلجأ إلى كبت هذه المشاعر لدى الآخرين بقوة القانون. ويمكننا القول بأن تطبيق قانون معاداة السامية هو أدعى إلى تراكم المشاعر العدائية أكثر نحو اليهود، أى أنه يحقق أثرًا عكسيًا لما أرادوه.

ويحاول فرويد من خلال منهج التحليل النفسي أن يفسر ظاهرة العداء للسامية، فيقول :

«لابد طبعًا أن هناك أكثر من سبب لظاهرة بمثل هذا التركيز والقوة الدائمة كظاهرة الكراهية الشائعة لليهود. ويمكن أن نستشف سلسلة كاملة من الأسباب، وبعضها مما لا يحتاج إلى تفسير وينهض على اعتبارات واضحة، وبعضها الآخر يوجد على أعماق بعيدة، وينبثق من مصادر خفية قد نعتبرها دوافع مميزة. وأكثر هذه الأسباب كذبًا فى المجموعة الأولى هو الزجر الذى يقول بأن اليهود أجانب، وهو كاذب طالما أن اليهود اليوم فى كثير من الأماكن التى يسيطر عليها العداء للسامية كانوا أقدم عناصر السكان، أو أنهم جاءوا قبل السكان الحاليين، وهذا ما حدث مثلاً فى مدينة كولون التى وفد إليها اليهود مع الرومان قبل أن تستعمرها القبائل الألمانية. وهناك أسباب أقوى من ذلك للعداء للسامية، مثلاً كون اليهود يعيشون فى الغالب كأقلية بين الشعوب الأخرى، طالما أن الإحساس بالتضامن بين الجماهير، لكى يكون إحساسًا كاملاً، يحتاج إلى كراهية لأقلية خارجية، ويستثير الضعف العددى للأقلية الجماهيرية من الأغلبية إلى اضطهادها. وهناك مع ذلك خاصتان أخريان لليهود لا يمكن اغتفارهما لهم، الأولى: أنهم يختلفون فى نواحٍ كثيرة عن "مضيفيهم". وهم ليسوا كذلك طالما أنهم ليسوا جنسًا آسيويًا أجنبيًا كما يقول أعداؤهم،ولكنهم يتكونون فى الأغلب من بقايا شعوب البحر الأبيض ويرثون ثقافتهم. ومع ذلك فهم مختلفون –ولو أن من الصعب أحيانًا أن نحدد أوجه هذا الاختلاف– وخاصة اختلافهم عن الشعوب الشمالية. ولكن التعصب العنصرى يهول من أمر الاختلافات الصغيرة دون الاختلافات الجوهرية، وهو شىء نجده غريبًا. والخاصية الثانية لها تأثير معترف به أكثر، وتقول إن اليهود يتحدون الاضطهاد، بل إن أقسى أنواع الاضطهاد لم تنجح فى إبادتهم، وهم يظهرون على العكس قدرة على إدارة أعمالهم فى الحياة العملية، وحيثما تفتح أمامهم المجالات فإنهم يسهمون إسهامات لها قيمتها فى المدن التى يعيشون بين ظهرانيها. وتكمن جذور الدوافع العميقة للعداء للسامية فى الأزمان التى عفى عليها من قديم، وهى دوافع تنبع من اللاشعور، وإنى لمستعد لسماع أن ما سأقوله سيبدو لأول وهلة شيئًا لا يصدقه العقل، وإنى لأجرؤ على أن أؤكد أن الغيرة التى استثارها اليهود لدى الشعوب الأخرى بإصرارهم على

القول بأنهم المولود المحب للإله الأب، لم تتغلب عليها هذه الشعوب الأخرى، كما لو أن هذه الشعوب قد صادقت على هذه الدعوى. وأكثر من ذلك فإن اليهود أكدوا عزلتهم عن الآخرين بعادات، على رأسها عادة الختان التى كان لها الطباع منفر شديد. وربما كان تفسير هذا الانطباع أن الختان يذكر هذه الشعوب بفكرة الإخصاء المرهبة وبأشياء ترجع إلى ماضيها البدائى الذى يسرهم أن ينسوه. وهناك أخيرًا أحدث الدوافع، وهو دافع التسلسل، فلا ينبغى أن ننسى أن كل الشعوب التى تتفوق الآن فى ممارسة العداء للسامية لم تصبح مسيحية إلا فى الأزمان الحديثة نسبيًا، وأنها أجبرت على اعتناقها فى بعض الأحيان بحد السيف، وربما جاز لنا أن نقول إن إيمانها جميعًا "إيمان فاسد"، وإنها تحت قشرة المسيحية الرقيقة ظلت على إشراكها الهمجى كما كانت أسلافها، ولم تتغلب بعد على حقدها على الديانة الجديدة التى فرضت عليها، وأنها أسقطت هذا الحقد على المصدر الذى أتت إليها منه المسيحية، وسهلت الحكاية التى ترويها الأناجيل عن الوقائع التى جرت أحداثها بين اليهود، والحقيقة أنها رواية لا تتحدث إلا عن اليهود، سهلت هذا الإسقاط، والنتيجة أن كراهية اليهود هى فى الصميم كراهية للمسيحية، ولا يدهشنا أن نجد أن الترابط الوثيق بين الديانتين التوحيديتين قد وجد تعبيرًا عدائيًا قويًا عنه لكل من الديانتين فى الثورة الاشتراكية الوطنية الألمانية (النازية)» (فرويد ١٩٥٥).

وكما نرى، فعلى الرغم من إسهاب فرويد فى تحليل أسباب العداء لليهود، فإنه للأسف، لم يستطع النفاذ إلى الصفات الأهم التى أدت لذلك العداء فى كل المراحل التاريخية مثل العنصرية والعدوانية والحقد والميل للانتقام والإبادة، وكان يكفى فرويد أن يقرأ سفر يشوع فى التوراة ليعرف سبب ذلك العداء، وأنه بدأ من اليهود أولاً ثم أسقطوه على سائر الأمم.

ولم يكن تعرض اليهود لمثل تلك الشدائد بسبب دينهم كما يزعمون، ولكنها الأطماع الاقتصادية والسياسية، والمصالح المادية التى تتخفى وراء الدين، لتكون إثارة الفتنة وإشعال نار التعصب أسهل وأسرع أثرًا.

وتعرُّض اليهود للاضطهاد المتكرر الذى غرس فى قلوبهم ما نعلم من الحقد على أمم العالم له أسباب أعمق من أنهم يهود، ولكن اللاسامية كانت ومازال تهمة مريحة جدًا، سهلة الاستعمال، يضعون على حسابها كل أوزارهم. وليس معنى ذلك

أن اللاسامية فكرة وهمية، فهى واقع لاشك فيه، نلحظه فى تعامل أمم العالم أحيانًا مع اليهود، ولكن أمم العالم ليست مجنونة بحيث تتنكر لفئة من الناس ظلمًا وعدوانًا وبغير سبب، فأسباب اللاسامية كثيرة جدًا، تعود المسئولية فى معظمها إلى الشخصية اليهودية نفسها. وهذا برنار لازار الكاتب اليهودى الذى عالج الموضوع يجعل عنوان الفصل الأول من كتابه "الأسباب العامة للاسامية"، وتحت هذا العنوان يضع قائمة طويلة من الأسباب، كلها صادرة عن تطرف اليهود وتعصبهم، وخلطهم السياسة بالدين، ووضع ذلك كله تحت شعار التكتل العنصرى، وما بداخل أنفسهم من كبرياء تتجلى فى اعتقادهم أنهم شعب الله المختار، مما أدى إلى تقوقعهم وعزلتهم، وتبرير تلك العزلة بالخوف من أن يتنجسوا بالاختلاط بالأمم الأخرى، وما ترتب على ذلك من أوضاع مادية وروحية وثقافية تجعلهم منبوذين مكروهين (ظاظا ١٩٩٠).

٤ ـ قتل الأنبياء والمصلحين

لقد كثر عدد الأنبياء فى بنى إسرائيل، ولهذا أكثر من تفسير :

١- تفسيرهم هم، وهو أن هذا تكريم لهم أن يكون فيهم هذا العدد من الأنبياء لأنهم شعب الله المختار، وهذا تفسير يبعد عن الحقيقة حيث إن علاقتهم المضطربة بأنبيائهم تستبعد هذا.

٢- التفسير الطبى، وهو أنه كلما كثرت الأمراض كثر الأطباء اللازمين للعلاج، فالسمات المميزة لبنى إسرائيل من العناد وسرعة الارتداد عن الحق، والعنصرية والعدوان... إلخ، كانت تستدعى تواتر الأنبياء فيهم لعلاج انحرافاتهم، وهذا التفسير أقرب إلى الواقع.

٣- قتلهم للأنبياء مما يستدعى إرسال من يقوم بالإصلاح فيهم.

والتاريخ يذكر لليهود قتل الكثير من الأنبياء، بعضهم مجهول الاسم وبعضهم معروف مثل نبى الله يحيى الذى قتلوه وقدموا رأسه هدية لغانية، ومحاولتهم قتل عيسى عليه السلام وصلبه. وقد ورد فى القرآن : ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ (البقرة ٦١) ولم يتوقف الأمر عند قتل الأنبياء، وإنما امتد ليشمل أى مصلح إنسانى أو اجتماعى منهم يحاول ردهم إلى جادة الصواب، ولنأخذ مثالين على ذلك :

* فى هولندا ظهر الفيلسوف اليهودى المتحرر "باروخ سبينوزا" فى القرن السابع عشر، وكان يعتقد أن نهاية الشقاء اليهودى، شقاء اليهود وشقاء العالم باليهود، تكمن فى إيمان هؤلاء الناس بالدين فقط، وتخلصهم من النعرة القومية الأسطورية التى تفسد ما بينهم وبين الإنسانية كلها. وكان يرى أن الشخصية الإسرائيلية يمكن أن تحافظ على فضائلها لو أنها لزمت شرائع الدين، دون أن تفكر فى الاتجاه نحو أرض معينة مثل فلسطين بحجة أنها أرض الآباء والأجداء. ففى يقينه أن الله لا يشترط لعبادته مكانًا جغرافيًا معينًا، وأنه يقبل الصلاة ويسمع الدعاء من أى مكان على ظهر الأرض. فماذا كان جزاء هذا المصلح اليهودى من قومه ؟... أعلنت السلطات الدينية الإسرائيلية طرده من الدين، وألصقت به من التهم ما أمدها به خيالها الخصب. ولم يحاول الرجل أن يتصدى لهذه الغوغائية فى الفكر، والصرف إلى العلم... وإذا بالجهل يحاول إرهابه، ثم يحاول قتله، لولا أن تداركه

بعض المعجبين به من تلاميذه ومحبيه، فنصحوه بأن يترك امستردام، ليعيش فى بعض الأرياف القريبة منها، حتى يتمكن هو وأصدقاؤه من تمييز الإرهابيين والسفاحين والقتلة لو أن بعضهم حدثته نفسه بالمجيء إليه فى هذا المكان الذى اعتزل فيه (ظاظا ١٩٩٠).

* وكان "موسى مندلسون"، أحد الإنسانيين الكبار فى القرن الثامن عشر، وذهب هذا المصلح اليهودى إلى أن مشكلة اليهود الحقيقية تكمن فى أن شخصيتهم قد تبلورت وراء أسوار الجيتو، وأن فكرهم نفسه قد أقيمت من حوله حواجز أقوى من أسوار الجيتو، صنعوها هم بأنفسهم وتحصنوا فى داخلها، وتعودوا على ظلامها الدامس. ورأى أن الخروج من هذا الحبس الاجتماعى والفكرى لا يكون إلا باعتبار اليهودية عقيدة وديانة وأخلاقًا ونمطًا فى المعيشة، لا دخل فيها للعنصرية ولا للكبرياء النابعة من الخرافات. وهو الذى رفع فى قومه الشعار المشهور "كن يهوديًا فى بيتك، ومواطنًا مخلصًا فى الطريق". وكان حلّه هذا فى حقيقة الأمر متسقًا مع اتجاه العالم نحو الحرية، فقد قامت الثورة الفرنسية، التى أعلنت فيها حقوق الإنسان بعد موت مندلسون بثلاث سنوات فقط. فما كان جزاؤه من قومه عن هذا الجهد المضنى ؟ ... الكذب والإفك المفترى الذى يخدش الرجل فى علمه وعقله وكرامته وعرضه وأسرته. انبرت له الأقلام اليهودية المسمومة بالتعصب، فلم تترك جانبًا من جوانب حياته إلا لوثته. وتعقب المعاندون من رجال الدين الإسرائيلى كتبه فجمعوها وأحرقوها، وحرموا على قومه قراءتها إن أعيد طبعها، وجعلوا هذا التحريم مؤبدًا إلى يوم القيامة، لأنهم وصموا الرجل بالزندقة أيضًا (ظاظا ١٩٩٠).

* ولم يكن إسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل مصلحًا بالمعنى المعروف للإصلاح، فقد كان صاحب سياسة تكسير عظام الفلسطينيين إبان الانتفاضة، ومع هذا فقد رأى بحسه السياسى البراجماتى أن السلام مع الفلسطينيين ومع العرب أصبح ضرورة لإسرائيل فى المرحلة الراهنة، وأنه لا جدوى من استمرار الصراع المسلح لأن إسرائيل لا تحتمل العيش تحت وطأة العداء الفلسطينى من داخلها والعداء العربى المحيط بها من كل جانب، ولذلك تبنى الرجل مفهوم الأرض مقابل السلام. ولم يكن رابين رسول سلام بالمعنى المعروف، فقد كان متشددًا فى

المفاوضات إلى أقصى درجات التشدد، وكان لا يعطى شيئًا إلا إذا أخذ فى مقابلـه أضعافًا من حقوق الفلسطينيين، ومع هذا اعتبره المتطرفون الدينيـون اليهـود خائنًا لتعاليم التوراة ومفرّطًا فى الحقوق المقدسة لليهود فـى فلسـطين، وبنـاء علـى هـذه الاتهامات قام شاب يهودى متطرف هو "إيجـال عامـير" بقتـل إسـحاق رابـين كـى تتوقف جهوده نحو السلام وتتوقف عملية السلام برمتها.

ويؤكد القرآن هذا السلوك فى قول جامع ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقًا كذبتم وفريقًا تقتلون﴾ (البقرة ٨٧).

فالدافع الأكبر وراء رفـض اليهـود للأنبيـاء والمصلحـين هـو الكـبر، فلديهـم تصور نرجسى عن أنفسهم ملىء بالعنصرية والتعصب، فإذا وجـدوا أن دعـوة النبـى أو المصلح لا تتفـق مـع هـذا التصـور –وهـى بـالضرورة لا يمكـن أن تتفـق– نجدهـم يسارعون بإعلان الحرب على النبى أو المصلح بهدف إسكات الدعوة ومحو الداعيـة، لكى تسود تصوراتهم وأهواؤهم.

﴿إن الذين يكفرون بآيـات الله ويقتلـون النبيـين بغـير حـق ويقتلـون الذيـن يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم﴾ (آل عمران ٢١).

٥ـ جريمة باروخ جولدشتاين: الحدث والدلالات

شهدت على شاشة التليفزيون جنازة "جولدشتاين" ذلك الطبيب الصهيونى المتعصب الـ...... الـ...... الذى قاد مذبحة المسجد الإبراهيمى بالخليل فهتك حرمة رمضان وحرمة المسجد وحرمة السجود وحرمة النفس البشرية. وكان يشيع الجنازة حشد كبير من المتطرفين، وإذا وصفتهم بالتطرف فأنا لا أقول ذلك حمية (وإن كانت لدىّ الحمية) وإنما أقولها وصفًا علميًا وتشخيصًا نفسيًا بحكم مهنتى. فقد كانت وجوههم متشنجة، ويتحدثون بعصبية ظاهرة، وتبدو مشاعر البغضاء والعداوة فى قسماتهم والتوتر واضح فى حركات أيديهم، وحتى لباسهم ينم عن نفوس مريضة حيث يبدو الشذوذ فى اختيارهم لقبعاتهم، فقد كان بعضها كبيرًا إلى الدرجة التى تخفى معظم وجوههم، وبعضها الآخر صغيرًا كالبقعة القذرة تغطى مؤخرة رؤوسهم وكأنها رمز للبخل اليهودى المعروف. وهم يبكون ويصرخون ويتوعدون وكأن المسلمون هم الذين قتلوا "جولدشتاين" وليس العكس.

وكل من يتابع ردود أفعال القطاعات المختلفة فى المجتمع الإسرائيلى يلمح بسهولة أنهم جميعًا اتفقوا على أن "جولد شتاين" قام بعمل بطولى، وفى هذا دلالة بالغة على العمق النفسى لهذا المجتمع شديد التطرف والتعصب. ولا يخفف من هذا الاستنتاج بعض التصريحات الرسمية التى تحاول امتصاص موجات الغضب التى اجتاحت ضمائر العقلاء فى كل مكان نظرًا لبشاعة الجريمة.

وهناك لمحة أخرى شديدة الدلالة على التركيبة النفسية للمجتمع اليهودى، وهى أن "جولدشتاين" هذا طبيبًا ، والمعروف أن فئة الأطباء فى أى مجتمع هى أقل فئة يمكن أن تجد فيها تعصبًا أو عدوانية لأن اختيار المهنة نفسه يدل -فى الأغلب- على أن من يختارها يحمل قلبًا رحيمًا ويميل إلى المساعدة أكثر من ميله إلى المواجهة أو العنف، ثم عند ممارسته لمهنته فهو أبعد الناس عن العنصرية لأنه يعالج أى مريض مهما كانت هويته، فهو يتعامل معه كإنسان يحتاج المساعدة بصرف النظر عن أى اعتبارات سياسية أو عرقية أو اجتماعية. ومع كل هذه الاعتبارات نجد أن "جولدشتاين" الطبيب اليهودى يقبل على هذه الجريمة البشعة بإصرار شديد ووعى كامل بدليل أنه غيّر خزينة بندقيته مرتين حسب رواية شهود العيان. والرجل ليس

مجنونًا كما يدّعون فالمجنون لا يستطيع أن يقوم بعمل شديد التنظيم والتعقيد والتخطيط كهذا العمل، وإنما المعهود فى جرائم المجانين أنها تكون ردود أفعال عشوائية يفعلها الشخص وهو مرتبك ومضطرب، أما "جولدشتاين" فقد فعل جريمته بتخطيط وتنظيم وتنسيق مع أشخاص آخرين -كما جاء فى شهادة الكثيرين- وتحت غطاء من الجيش الإسرائيلى، ثم قتلوه بعد ذلك لتختفى معه آثار الجريمة على طريقة عصابات السلب والنهب والاغتيال.

نعود فنقول: إذا كانت فئة الأطباء فى المجتمع الإسرائيلى على هذا القدر من التعصب والقسوة فما بالك ببقية فئات هذا المجتمع.

ولو سلمنا جدلاً بأن الرجل مجنون فإن الجريمة التى أقدم عليها فى لحظة جنونه تدل على الاتجاهات والنوايا الكامنة فى المجتمع الذى يعيش فيه فهو يعبر عن جوهر المجتمع الإسرائيلى بلا زيف أو خداع، وفى هذا -على زعم صحته- دلالة على أن بداخل كل إسرائيلى رغبة تدميرية للمسلمين حتى فى قمة مسالمتهم أثناء السجود.

ولقد شاءت الأقدار أن يأتى هذا الحدث بعد حوالى شهر من مؤتمر علمى عقد بدار الإفتاء بالقاهرة تحت عنوان: "حل الصراع". ولقد كان الاتجاه العام هو أن المؤتمر يناقش قضية علمية نفسية واجتماعية وهى كيفية حل الصراعات النفسية والاجتماعية بالطرق الصحية التى تحفظ للمجتمع تماسكه. وكانت قيمة هذا الموضوع تدرك من خلال ما تتعرض له المجتمعات العربية والإسلامية من صراعات وفرقة تمزق وحدتها. ولكن فوجئ الجميع بحضور مكثف لليهود فى هذا المؤتمر (على المنصة وفى قاعات الاجتماع) وسعيهم لتحويل المؤتمر لخدمة أهدافهم السياسية فقد كانوا يطالبون العرب والمسلمين بنسيان الصراعات مع اليهود وتقبلهم والتعايش معهم فى سلام على أرض فلسطين وفى أى مكان. وانتهز بعضهم الفرصة وراح يتحدث عن حق اليهود فى فلسطين وكان يردد بعض نصوص التوراة فى وقاحة شديدة وهو يرتدى قبعته التى يعلن بها عن هويته المتعصبة فى حين كانت كلماته وكلمات إخوانه اليهود تدعو إلى تذويب الهويات الدينية والقومية تحت شعار الأخوة الإنسانية. وليكتمل العمل الدرامى فقد قامت سيدة تبلغ من العمر حوالى ٧٥ سنة وذكرت بأنها عاشت أربع سنوات فى معسكرات اعتقال النازى، ومع ذلك فهى لا

تحمل فى قلبها أى كراهية لأحد ولذلك تدعو العرب والمسلمين أن يحذو حذوها وينسوا ما فات ويحبوا اليهود ويتعايشوا معهم تحت مظلة الأخوة الشرق أوسطية الإنسانية.

وإبان هذا المؤتمر انطلقت أقلام العلمانيين العرب –وكأنهم كانوا على موعد– لتبشر بعهد جديد من المحبة والتآخى والتعاون مع الإسرائيليين وأن ننسى ما فات ونبدأ صفحة جديدة وأن نتخلص من عقدنا النفسية (نحن العرب) ونفكر بعقول مفتوحة تناسب النظام العالمى الجديد. وللأسف صدق الكثيرون من السذج ذلك الوهم حتى صفعهم "جولدشتاين" الطبيب الصهيونى.

٦ ـ الحمائم والصقور

لم يكن بيريز قد غسل يديه بعد من دماء أطفال لبنان بل كانت أشلاؤهم تغطى وجهه وملابسه، ومع هذا ذهب إلى فرنسا ليفتتح ساحة التسامح.. وكان يمسك بالمقص فى يده اليمنى ليقص الشريط فرأيت رقاب الأطفال والشيوخ والنساء تتساقط من بين حدى المقص، والفرنسيون من حوله يصفقون، فيرد عليهم بيريز بابتسامة تقطر دمًا (وتسامحًا).

لقد رأينا هذا المشهد الهزلى فى أول مايو ١٩٩٦ ونقلته وكالات الأنباء إلى أنحاء الدنيا عبر الشاشات السوداء. ولا يملك الإنسان أمام هذا المشهد العجيب أى تفسير أو تبرير أو تحليل اللهم إلا إذا كان بيريز وحلفاؤه لا يعتبرون العرب والمسلمين آدميين، لذلك فقتلهم الجماعى بهذه الوحشية لا ينقص صفة التسامح لدى بيريز ولا يستحق الأسف أو التوارى أو الخجل، فالناس لا يلومون الجزار على ذبحه للخراف!!.

ولكنك مع هذا تقف منبهرًا من قدرة هذا الإرهابى (الحقيقى) على الابتسامة وهو يقتل، وعلى قدرته على الحديث عن التسامح والفتاح ساحة له وهو يدوس رقاب الأطفال تحت أقدامه ويقطع أجسادهم.. ما هذه القدرة؟! .. وما هذا التبجح؟!.. هل يشك فى ذاكرة الناس إلى هذه الدرجة...؟! إن شاشات تليفزيون العالم مازالت حتى هذه اللحظة تعرض مناظر بشعة للقتل والتدمير على أيدى بيريز فى لبنان... تلك المناظر التى لا يستطيع الإنسان أن يتحمل رؤيتها فيضطر إلى الإشاحة بوجهه رعبًا وهلعًا وحزنًا وألمًا.

وإن كان بيريز يشك فى ذاكرة العرب ويردد ما ردده ديان من قبل من أن العرب لا يقرأون، وإذا قرأوا فإنهم لا يفهمون، وإذا فهموا فإنهم سرعان ما ينسون.. إذا كان هذا الافتراض صحيحًا لديه فهل يتوقع أن يكون النسيان لديهم بهذه السرعة الجنونية؟!.. وإذا كان الأمر كذلك فعلاً فهلا فكر فى ضمير العالم الذى اهتز لمذبحة "قانا" وهو يرى قطع الأطفال المتناثرة تجمع فى أكياس من البلاستيك، أو يرى الأب وهو يحمل طفلته ذات الشهرين من عمرها وقد مزقت

جسدها إحدى قذائف بيريز، وينظر إلى أطفاله الخمسة الباقين وقد قطعتهم قذائف بيريز داخل السيارة.

ما هذه الجرأة الوقحة (أو الوقاحة الجريئة) التي تتحمل هذا التزييف الإعلامي الصارخ وتنقله إلى العالم أجمع؟!.. وهل فتش الفرنسيون في العالم كله فلم يجدوا شخصية جديرة بافتتاح ساحة التسامح لديهم إلا شخصية بيريز وفي هذا التوقيت بالذات؟!.. وهل اضطربت الموازين والمفاهيم في الحضارة الغربية إلى هذا الحد المخيف؟!.. وهل كان هذا التوقيت لافتتاح ساحة التسامح مصادفة أم أن هناك ترتيبات مسبقة بحيث يتيح ذلك تجميل وجه بيريز وغسل يديه (وقدميه) في ساحة التسامح بباريس؟!.. أم أن للتسامح عندهم معنى آخر لا نعرفه؟

ولكن لو استدركنا الأمر قليلاً فسنجد أنه ليس من حقنا أن نتعجب، فنحن أول من صدق بيريز في حديثه المعسول (المسموم) عن السلام وعن التسامح ونسيان الماضي وعن الرفاهية وعن الانتعاش الاقتصادي الشرق أوسطي وعن بدأ صفحة جديدة ننسى فيها الحروب والأحزان. والعجيب أن بعضنا صدقه على الرغم من أن خناجره مازالت مغروسة في بطوننا، بل والأعجب من ذلك أننا ظللنا نطلق صيحات السلام ونعدل مواثيقنا الو[illegible] لتكون ملائمة لمرحلة ما يسمى بالسلام في الوقت الذي يحرق فيه بيريز أطفال لبنان ويحاصر شعب فلسطين حصار تجويع وإذلال.

ونخشى أن نكون قد أصبحنا أضحوكة للعالم، فقد قام شيراك بزيارة عدد من العواصم العربية مبشرًا بمد اليد الفرنسية فسارعنا وقبلناها، وأطلقنا الزغاريد وأضأنا الشموع.. فتشجع الرجل وطلب منا أن نحتفل بذكرى الحملة الفرنسية على مصر فهي (في نظره) كانت بداية التعاون المشترك والالتقاء الحضاري بين الغرب والشرق. وقد قال ذلك بكل جرأة وهو يعتقد أننا نسينا شهداءنا من الأبطال والعلماء الذين ذبحهم نابليون، وأننا نسينا كل محاولات المسخ الثقافي والتشويه والاختراق الذي مارسه الاستعمار على اختلاف جنسياته حتى هذه اللحظة، ولكن يبدو أن الجميع يراهن على ضعف ذاكرتنا.

إن تعبير "تزييف الوعي" لا يستطيع أن يصف ما يحدث، فلو أن ثمة وعي باق لحسب حسابه هؤلاء الناس، ولكنهم يتصرفون وهم متأكدون أننا في حالة خدر

وسبات عميق، وأن ذاكرتنا قد ماتت من زمن بعيد، وأنهم قد برمجوا ما تبقى لنا من عقل فأصبحنا ننطق بما ينطقون ونردد ما يقولون، ونعمل ما يحلو لهم ويحقق مصالحهم.. ونهرول ...ونبطح.. ونزحف على البطون.

فليهنأ بيريز... وليضحك شيراك .. وليصفق العالم العربى والإسلامى لهما وهما يفتتحان ساحة التسامح فى فرنسا.

الفصل الرابع

الصهيونية حالة بارانويا

١- الصهيونية حالة مرضية

نخلص من تناولنا السابق لطبيعة النشأة لليهود والصهاينة، وكذلك سمات ومحددات الشخصية الصهيونية ونتائج وانعكاسات وتأثيرات تفاعلها مع العالم من حولها، إلى أنها حالة مرضية"بارانويا" وتبرير ذلك فى ضوء التحليل العلمى النفسى التالى :

نجحت إسرائيل فى ظروف خاصة (بمساعدة أمريكا) فى محو صفة العنصرية التى التصقت بالصهيونية فى ملفات الأمم المتحدة رغم أن خصائص الحركات العنصرية تنطبق بالكامل على سلوك إسرائيل منذ قيامها وحتى هذه اللحظة أكثر مما تنطبق على أى حركة عنصرية أخرى. والصهيونية هى التجسيد السياسى والاجتماعى للفكر اليهودى الوضعى وليس للديانة اليهودية.

وإذا ابتعدنا عن السياسة وضروراتها وأحكامها وتحيزاتها وانتهازيتها ونفعيتها، وحاولنا رؤية الصهيونية من جانب أخر أكثر موضوعية والتزامًا، وهو الجانب العلمى، فإننا نستطيع أن نرصد الملحوظات التالية :

- حين يعتبر اليهود أنفسهم شعب الله المختار، ويدعون تميزًا على سائر البشر، لا لشئ فعلوه ولكن لمجرد النسب وطبيعة الخلق (حسب تصورهم الخاص)، وهم يتصرفون طبقًا لهذا الاعتقاد، فينظرون إلى بقية البشر على أنهم "خراف ضالة" أو أنهم "الحمير التى يركبها بنو إسرائيل"، وهذا الاعتقاد فى وجود فئة من البشر متفوقة على بقية الناس بطبيعة الخلق أو النسب، لا نجد له فى المجال العلمى أثرًا من الصحة، فالبشر جميعًا قد خلقوا ولديهم إمكانيات عقلية وجسدية متقاربة، وبقدر ما ينجحون فى استغلالها وتوجيهها يتفوقون، وأن هذا التفوق ليس حكرًا على لون أو جنس بالذات، ويتأكد هذا المفهوم من واقع التاريخ الإنسانى من خلال دورة الحضارات على مر العصور فى الأجناس المختلفة. لذلك فاعتقاد اليهود الصهاينة فى التفوق والتميز علميًا يُصنَّف على أنه اعتقاد وهمى خاطئ، وهو ما يسمى فى الطب النفسى بالوهامات (Delusions) ، ويمكن أن نرى هذا الموقف بوضوح بشكل مواز فى مواقف مريض البارانويا الذى يعتقد أن لديه قدرات خارقة، وأنه -وحده- يستطيع توجيه البشر وقيادتهم، وأنه يمتلك الأراضى الشاسعة والشوارع المهمة ووسائل النقل، وهو الذى كتب الموسوعات ووضع النظريات وبنى الأهرام.. إلخ.
- واليهود الصهاينة بناءً على التصور السابق فى التميز والتفوق يلازمهم شعور دائم

بالاضطهاد لأنهم يعتقدون أن بقية البشر يظلمونهم ويحقدون عليهم ويغارون منهم، ويمنعونهم حقوقهم المشروعة فى امتلاك كل شيء والسيطرة على كل شيء. ولا يخفى هذا الشعور بالاضطهاد فى كل أدبيات اليهود القديمة والحديثة. وهذا الموقف موازٍ لموقف مريض البارانويا الذى يشكو من اضطهاد الناس له نظرًا لغيرتهم منه وحقدهم عليه ومحاولة إيذائه وتتبعه ومراقبته.

- والبناء الفكرى الذى تقوم عليه الصهيونية ملىء بالأساطير والأفكار الخرافية وشبه الخرافية. ولا يستطيع أى عالم أن يتقبل أو يهضم هذا التراث الفكرى الخرافى نظرًا لما يتضمنه من تشوهات معرفية يصعب قبولها بالمنطق العلمى أو التاريخى الموضوعى. وهذا التشوه يجعل اليهود فى حالة اغتراب دائمة بعيدًا عن النسق الإنسانى العام لأنهم يعيشون حالة فكرية خاصة جدًا وغريبة جدًا.
- والعوامل السابقة كلها أدت إلى عزلة اليهود حسيًا ومعنويًا، فهم غالبًا لا ينصهرون فى المجتمعات التى يعيشون فيها، بل يتجمعون فى حارات وشوارع وأحياء خاصة بهم كلما تيسر لهم ذلك. ويفضلون عدم دخول أحد فى الديانة اليهودية ويعيشون حالة وجدانية ودينية شديدة العزلة وشديدة الخصوصية وبعيدة عن إمكانية التفاعل فضلاً عن التعايش مع الآخرين. وهم رغم ما عانوه تاريخيًا من هذا الموقف البارانوى المنعزل إلا أنهم غير قادرين -على ما يبدو- على تغييره، والمثل الأوضح على ذلك إصرارهم على أن يبتلعوا أرض فلسطين ويتجمعوا فيها وهم محاطين من كل النواحى بتجمع بشرى عربى وإسلامى هائل وغاضب ورافض لهم. وبكل المقاييس التاريخية والحضارية والمنطقية لا يمكن أن يستمر هذا الكيان الضئيل حضاريًا وعدديًا وتاريخيًا، ولكن مع هذا يواصل اليهود سلوكهم النمطى الانتحارى المدمر المبنى على تشوهات معرفية خرافية.
- واليهود -رغم ادعائهم للذكاء والواقعية- إلا أن تتبع تاريخهم القديم والحديث يوضح خطأ حساباتهم وانفصالهم عن الواقع، وقد سبب لهم ذلك الكثير من النكبات فى مراحل تاريخية مختلفة، وعلى سبيل المثال: عدم قدرتهم على الاقتناع بحتمية انتصار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والتعايش معها كواقع ، مما أدى بهم إلى محاولات متكررة للوقيعة والخيانة والمكر رغم وجود معاهدات للتعايش بينهم وبين المسلمين، وانتهى الأمر بطرد بنى قينقاع من المدينة، ولم يعوا الدرس فعاودوا نفس سلوكهم المدمر فأدى ذلك إلى طرد بنى النضير، ولم يعوا الدرس وحاولوا الخيانة العظمى فى غزوة الخندق مما استوجب قتل رجال بنى قريظة وسبى نسائهم، ولم يعوا الدرس فعادوا للتآمر فى خيبر، وكانت النهاية الحتمية طردهم

(بسبب أفعالهم) من الجزيرة العربية، ولم يكن ذلك بسبب نظرة عنصرية نحوهم وإنما كانوا يدفعون -هم بأنفسهم- الأحداث دفعًا نحو هذا المصير. وفي التاريخ الحديث نلحظ عدم قدرتهم على التكيف والتعايش مع المجتمعات مما أدى إلى كراهية كثير من الشعوب والحكومات لهم ونبذهم إياهم.

- وأكبر الفصال عن الواقع يعيشونه هذه الأيام تحت وهم إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، والتي تدل كل الوقائع التاريخية والحضارية على استحالة قيامها واستمرارها وقد استطاعوا من خلال مساعدة أمريكا لهم تكوين قوة عسكرية ضخمة أرهبوا العرب بها وأجبروهم على الاعتراف بإسرائيل وأجبروهم على قبول التعايش مع هذا الكيان الاستعماري من خلال معاهدات سلام قامت على الترغيب والترهيب ولم تقم على العدل والإنصاف، وحين كان قطار السلام على وشك الوصول للنهاية إذا بهم ينكصون ويضيعون هذه الفرصة التاريخية السانحة لهم ليعيشوا بسلام مع جيرانهم رغم اغتصابهم للأرض، وإذا بشارون يذهب في حراسة ثلاثة آلاف جندى مدججين بالسلاح ليقتحم المسجد الأقصى وليستفز مشاعر ٢٥٠ مليون عربى ومليار مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها وليدمر عملية السلام وليعود الصراع من جديد ليستخدموا فيه كل وسائل العنف الوحشية ضد الأطفال والنساء والشيوخ. فهل يمكن وصف هذا السلوك بأنه سلوك بشرى سوى، أم أن وضعه ضمن السلوكيات المرضية هو الأقرب إلى الصواب.

كل العلامات السابقة : الشعور بالعظمة، والشعور بالاضطهاد، والميل للانعزال والاغتراب، والتشوه المعرفى، والانفصال عن الواقع، كلها علامات مرضية تستحق العلاج من المجتمع الإنسانى ككل، ولكن للأسف الشديد فإن النظام العالمى لا يتعاون فى علاجها بل يمارس -فى أحيان كثيرة- عملية تثبيت لهذه الأعراض المرضية، وربما هذا هو سبب تأخر الشفاء.

٢- التميز وسيكولوجية الأقلية

لا يستطيع منصف أن ينكر وجود أسماء لامعة من اليهود فى العلم والفن والأدب والاقتصاد والسياسة. والأسماء كثيرة وكبيرة وكان لها تأثيرها البالغ فى مجالاتها بصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا مع أفكارهم وتوجهاتهم، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر العالم النفسى الشهير فرويد مؤسس مدرسة التحليل النفسى وأتباعه إبرهام وأدلر وستكل وفيرنزى وريكلين وبلولر وفوريل وأساجيولى وكريبلين وإيتنجتون وجانيه ورانك وساخس، وعالم الاجتماع دوركايم، وعالم الاقتصاد ماركس، ومؤسس النسبية أينشتاين، والكاتب المسرحى الشهير آرثر ميللر والروائى فرانز كافكا، والروائى ألبرتو مورافيا... وغيرهم كثيرون يتربعون كرؤساء مجالس إدارة لكبريات الصحف ودور النشر العالمية، والبنوك والشركات العملاقة ويشكلون لوبى مؤثر فى كثير من المواقع الحساسة، فماذا يا ترى سر هذا التميز؟!... هل كونهم "شعب الله المختار" كما يدّعون؟!... هل هى سمات مميزة يتفوقون بها على سائر البشر كما يروجون؟!

فى الحقيقة لا هذا ولا ذاك، ولكنها سيكولوجية الأقلية تفعل فعلها مع اليهود كما تفعل مع غيرهم دون أى فرق. فحياة العزلة التى عاشوها فى كل المجتمعات مع إحساسهم بالاضطهاد وشعورهم بأنهم أقلية يعيشون تحت رحمة الأغلبية، كل هذا كان يشحذ هممهم ويطلق طاقاتهم الكامنة ويجعلهم عازفين عن الترف والرفاهية ومتوجهين نحو عوامل القوة والتأثير فى العلم والمال والاقتصاد والفن والصحافة والإعلام، فى حين يركن أصحاب الأغلبية إلى شعورهم بالعزوة والأمان. ولو تابعنا التاريخ الشخصى لنوابغ اليهود لوجدنا هذا العامل "سيكولوجية الأقلية" قد لعب دورًا هامًا فى إظهار نبوغه.

يضاف إلى ذلك عامل آخر وهو قدرة اليهود على"صناعة النجم" حيث يلتقطون أى بوادر للنبوغ لدى أحدهم فيدفعونه إلى الصفوف الأمامية ويحيطون أفكاره بهالات من التعظيم ويمنحونه أرفع الجوائز العالمية، ويروجون أفكاره على أوسع المستويات، والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها التالى:

- فرويد: على الرغم من كونه طبيب نفسى وعالم نفسى مجتهد واسع المعرفة إلا أن هالات التعظيم أعطت أفكاره حجمًا أوسع بكثير مما كانت تستحقه، ونقلت أفكاره إلى مجالات الفن والأدب والسياسة، على الرغم من أن الكثير من اجتهادات فرويد تعرضت لانتقادات شديدة وموضوعية حتى من أقرب تلاميذه،

ولم يتبق من نظريته في التحليل النفسي إلا القليل الذى مازال يلقى بعض القبول العلمي، أما باقي اجتهاداته فقد أصابها التصدع حتى في حياته.

- كارل ماركس: لقد أحيطت أفكاره بهالات من التعظيم والتقديس حتى لقد وضعه بعضهم في مصاف الأنبياء، وأعطيت نظريته الاقتصادية والسياسية فرصة هائلة للتطبيق في المجتمعات الشيوعية، وما هي إلا سنوات قليلة في عمر الزمن حتى انهار الكيان الشيوعي سياسيًا واقتصاديًا بسبب نظرية ماركس الفاشلة والعنصرية القائمة على الصراع بين الطبقات، وكان ثمن تطبيق النظرية سحق الملايين من البشر، وأيضًا ثمن الانهيار ضياع جيل كامل تربى على مبادئ هشة لم تثبت لاختبار الواقع.
- فرانز كافكا: أفردت الدعاية اليهودية صفحات هائلة في الصحف تتحدث عن عبقرية كافكا الروائية وعن عظمته في حين أن النقاد الموضوعيين الذين لم يتأثروا بهذه الدعاية يرون أن كافكا روائي متواضع أخذ معظم قصصه عن التوراة ولا يستحق كل هذا الضجيج.
- الشاعر الإسرائيلي عجنون: لم يسمع به أحد حتى في إسرائيل نفسها، ومع هذا منحوه جائزة نوبل.
- توماس مان: هو أستاذ الانتهازية اليهودية الذى لا يبارى، والحديث في جدارة مان واستحقاقه لجائزة نوبل لا ينتهي، ومقالاته عن الصهيونية وإسرائيل والتضامن اليهودى أمور يعرفها القاصي والداني، والأهم من ذلك كله ملكته الأدبية التى لم يستطع ناقد واحد أن يؤيدها تأييدًا غير مشكوك فيه، فقصصه مبتذلة ركيكة مهلهلة، ومع ذلك، ولأنه يهودى وانتهازى نشيط، استطاع أن يفرض نمطه الأدبي على دنيا الأدب. وبفضل دعاية الصحف والإذاعات اليهودية (الحفنى ١٩٧٣).
- ألبرتو مورافيا: يرى النقاد أنه كاتب سطحي ليست لديه القدرة على الحبكة الدرامية، وهو محدود الثقافة وضحل التفكير، ولكنه نال الشهرة والمجد بسبب انتمائه اليهودى.

وعلى الرغم من وجود الأسماء الفردية اللامعة إلا أن اليهود كأمة لا حضارة لها، فكل الأمم لها طُرُز في الفن تُعرف بها للنظرة الأولى، فليس من أحد يخطئ التعرف على قطعة من الفن الفرعوني أو الهندى أو الصيني أو الأوربي أو حتى الأفريقي الزنجي. وكذلك الأمر في الأدب والفلسفة والموسيقى وغيرها. فأين الفن اليهودى في كل هذا؟.. قد يقول المتعصبون منهم أنهم منحوا العالم ما هو أقوى من الفن، منحوه التوحيد والنبوة والكتب المقدسة والحياة الروحية المنظمة، وكل هذه

أمور قد سُبق اليهود إليها، وأنهم -حتى في مقدساتهم هذه- قد عدوا على تراث هذه الأمم فنهبوه واغتصبوه. وما تزال البحوث الجادة تبين أن شرائع السومريين، وقانون حمورابي، وتوحيد إخناتون، وابتهالات مصر القديمة وإيران والهند، وملاحم الشرق قبل العبريين القدماء، كل هذه تنعكس على المرآة الإسرائيلية ناطقة بأصولها ومصادرها (ظاظا ١٩٩٠).

وإذا كان اليهود على وجه العموم لديهم نوابغ فرديون في مجالات مختلفة، فإن الإسرائيليين الذين يعتنقون الفكر الصهيوني يفتقرون إلى التميز في أي مجال من مجالات العلوم أو الفنون أو الأدب، فلم نسمع عن عالم إسرائيلي متميز أو فنان إسرائيلي له سمعة عالمية، وكل ما في إسرائيل من تقدم تكنولوجي قد انتقل إليها من دول المنشأ التي هاجر منها الإسرائيليون وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وألمانيا، ولذلك نستطيع القول بأن التركيبة العنصرية المتعصبة دينيًا وعرقيًا في إسرائيل لا تسمح بنمو إبداع إنساني أصيل في أي مجال من المجالات العلمية أو الفنية، ولذلك تعيش إسرائيل عالة من الناحية العلمية والفنية كما تعيش عالة على الآخرين من الناحية الاقتصادية.

٣- نهاية إسرائيل حتمية نفسية

كما رأينا فى الفصول السابقة فإن حصاد الصهيونية فى إسرائيل: حلم ثبت زيفه، أسطورة تتعرى يومًا بعد يوم، تشتت، خوف، توجس، ضياع، اكتئاب، شك، تشاؤم، ضيق، مصير مجهول، عداوة مع كل المحيطين بإسرائيل... إلخ.

ولكن لما كانت الصهيونية قائمة فى أساسها على الحقد فكرًا، وعلى القتل والتخريب والتشريد والإجرام -فى حق الغير- فعلاً، فقد كان لابد وأن يكون آخر وأعظم حصاد لها، أن تصطدم -هى ذاتها- بجبال الحقد التى خلقتها فى الأرض، ثم لتسقط فى بحار الدم -دم الأبرياء من أصحاب الأرض- التى أراقتها (فراج ١٩٩٩).

هذه هى النهاية التعيسة والطبيعية التى لابد وأن يتوقعها، الآن، وينتظرها عامة اليهود، وإن بدا أن عقلاءهم هم أكثر إدراكًا لها، وأيضًا أكثرهم استعجالاً لوقوعها. يقول "حاييم هزاز" : «إن الصهيونية ليست استمرارًا، وليست علاجًا لمرضى، هذا هراء ، إنما اقتلاع وهدم، إنها عكس ما كان، إنها النهاية» !! (حماد ١٩٩٦).

ويقول آخر أكثر قربًا من طنين هذه النهاية:

«فعندما يدمر كل شىء فى البلاد، فلنسمع إذن من سيستخرج جوازات السفر، ومن سيهرب إلى خارج البلاد: اليمنيون؟ المغاربة؟ العراقيون؟ لا، سيهرب الإشكناز، وسيبقى السفاراد. ليس لهم من مكان يهربون إليه»!!! (حماد ١٩٩٦).

والأمراض التى تصيب الأفراد أو تصيب الجماعات كانت دائمًا حالات عارضة (حتى لو كانت مزمنة فإزمانها مؤقت إذا نظرنا إليها من خلال البعد التاريخى الأطول) لأن حالة الصحة هى الأصل. ولما كانت الصهيونية حالة مرضية فإنها حتمًا ستزول مثلما زالت كثير من الأمراض حيث تم تشخيصها بنجاح وعلاجها بفاعلية.

والحركات العنصرية على مر التاريخ انتهت واندحرت وكان آخرها العنصرية النازية التى نادى بها هتلر والنازيون لأن أى حركة عنصرية سيعتبرها الجسد الإنسانى إن آجلاً أو عاجلاً جرثومة أو جسم غريب يجب مقاومته أو لفظه. ولما كانت الصهيونية حركة عنصرية فلابد وأن تزول وسيتحقق ذلك حين يكتشف المجتمع الإنسانى -بعد زوال الغشاوة- ان الصهيونية ليست حركة عنصرية فقط ضد العرب أو المسلمين وإنما هى ضد مصالح وصحة البشرية كلها.

إن الإحساس باليأس قد يؤدى فى النهاية إلى الفرار والهزيمة، ولكنه فى المراحل الأولى يؤدى إلى مزيد من العنف الفكرى الذى يؤدى إلى مزيد من الإرهاب

الفعلي، وكلما زادت المقاومة الفلسطينية زاد البطش إلى أن يصل المستوطن الصهيوني إلى اللحظة التي يدرك فيها أن العنف لن يجدى فتيلاً أمام المقاومة، وأن تحالف إسرائيل الاستراتيجي مع الولايات المتحدة والعالم الغربي لن يفيدها كثيرًا في محاولة قمع الفلسطينيين، وعندئذ سيمارس هذا المستوطن تحولاً إدراكيًا إذ أنه لن يمكنه الاستمرار في الادعاءات أمام نفسه بأن فلسطين هي وطن اليهود القومي وأنها أرض بلا شعب تنتظر عودته منذ آلاف السنين، عندئذ ستسقط الأسطورة وتبدأ النهاية (المسيرى، جريدة الأهرام ٢٠٠٠/١١/٧).

«وإسرائيل ليست جنة الله في أرضه -كما حاولوا تصويرها لليهود وللعالم- وإنما هي شديدة الخلافات والحزازات الدينية والطائفية والعرقية، ثم تهب عليها عواصف الشك والتعالي والغطرسة والحقد وعدم الشعور بالأمان. ثم يذوب كل ذلك في جيش واحد أمام عدو واحد، فلو حدث فرضًا، أن تحقق السلام مع إسرائيل نفسها ومع جيرانها، فإن المجتمع الإسرائيلي سوف يتفكك ويتباعد ويهربون من إسرائيل إلى أي دولة أخرى.. إلى أمريكا حيث ينعم اليهود بأجمل ما في الدنيا... أو ألمانيا وبريطانيا وروسيا والأرجنتين.. فكثير من يهود إسرائيل يعيشون في الجيش وفي المستوطنات .. وقد تعبوا وزهقوا وملوا.. وكفروا بالديانة اليهودية التي فرضت عليهم الأرق والقلق والخوف وتسوس الأسنان وضغط الدم والانهيار العصبي» (أنيس منصور ١٩٩٩).

وإذا كان البعض يراهن على تحلل المجتمع الإسرائيلي في حالة السلام، فإن هناك سيناريوهات أخرى أكثر واقعية لانهيار هذا الكيان العنصري، ومنها حالة الخوف الدائمة في حالة استمرار الصراع مما يدفع بالكثير منهم إلى الهجرة العكسية خارج إسرائيل هربًا من الجحيم المستمر وحالة القلق الدائمة التي لا يأمن فيها على نفسه ولا على أسرته. وهذه نتيجة طبيعية لوجود هذا الكيان العنصري المتعالي العدواني وسط هذا المجتمع البشري العربي والإسلامي الهائل الرافض لهذا الجسم الغريب في جسده.

٤ - ليسوا سواءً

إنه لمن الإنصاف أن ننبه أنفسنا وننبه القارئ الكريم أن ما سبق من السمات التى تحدثنا عنها فى هذا الكتاب تنطبق بشكل خاص على اليهود الذين يتبنون الفكر الصهيونى ولا تنطبق بالضرورة على كل اليهود، فمنهم علماء موضوعيون ومنهم أدباء وفنانون مبدعون أضافوا الكثير للحضارة الإنسانية، ومنهم دعاة سلام رفضوا المجىء إلى فلسطين بل وهاجموا المشروع الصهيونى واعتبروه وصمة عار فى جبين التاريخ اليهودى، ولعل مؤتمر الحاخامات فى أوربا الذى رفض إقامة دولة يهودية فى فلسطين دليل على ذلك.

إذن فتعميم الصفات السابقة على كل يهودى فى العالم هو أمر خاطئ بالضرورة ويخالف المنهج العلمى، ولكن التعميم مقبول على كل يهودى حضر إلى إسرائيل وقبل أن يطرد فلسطينيًا من بيته ويقيم مكانه، وقبل بفكرة الترانسفير ومارس القهر والعنصرية والتعصب تجاه سكان البلد الأصليين، لذلك يسهل القول بأن كل يهودى مقيم بفلسطين الآن هو بالضرورة صهيونى تنطبق عليه كل الصفات السابقة لأنهم عينة منتقاة جاءت إلى فلسطين تحدوها أفكار عنصرية تعصبية عدوانية، ولذلك فالقول بأن بينهم مسالمين أو دعاة سلام أو مدنيين قولٌ يحتاج إلى مراجعة.

ورسول الإسلام محمد صلى ا لله عليه وسلم، رغم ما حدث من صراع مع بعض قبائل اليهود، إلا أنه لم يمارس العنصرية أو التعصب ضد كل يهودى بل بقى عدد غير قليل من اليهود بالمدينة (بعد جلاء بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة)، وكان أحدهم جارًا للرسول وكان يؤذيه أحيانًا بإلقاء القاذورات أمام داره صلى ا لله عليه وسلم ومع ذلك حين مرض اليهودى زاره الرسول وواساه. وقد مات الرسول صلى ا لله عليه وسلم ودرعه مرهون عند يهودى، وهذا يعنى وجود علاقات طبيعية وقوية بين المسلمين ممثلين فى رسولهم وقائدهم وبين اليهود فى مجتمع المدينة. وعاش اليهود كمواطنين لهم كل الحقوق وشغلوا مناصب عديدة ورفيعة فى الدولة الإسلامية فى مختلف مراحلها التاريخية، ولم يمارَس ضدهم أى اضطهاد أو تطهير عرقى. ونحن نؤكد هذا حتى لا يقع البعض فى نفس الخطأ الذى وقع فيه اليهود بأن نمارس عنصرية مضادة فنعادى كل يهودى دون بصيرة، فالأصل فى الأمور أننا لا نعادى أحدًا إلا إذا اعتدى علينا ويستوى فى ذلك أن يكون المعتدى مسلمًا أو مسيحيًا أو يهوديًا أو بوذيًا أو أى ديانة، فالعبرة هنا بالاعتداء وليس بالديانة أو العرق.

ولنأخذ بعض الأمثلة على خروج بعض الأصوات العاقلة على ذلك السلوك الانتحارى الصهيونى:

يقول مارتن بوبر أحد المفكرين اليهود:

«لقد اقتلعت الديانة اليهودية من جذورها، وهذا هو جوهر المرض الذى كانت أعراضه هى ولادة القومية اليهودية فى منتصف القرن التاسع عشر. وهذا الشكل الجديد للرغبة فى الأرض هى الخلفية التى أذنت بما استعارته اليهودية القومية الحديثة من القومية الحديثة فى الغرب».

ويقول مخاطبًا اليهود:

«أنتم إذا ما تفاخرتم بأنكم مختارون بدلاً من أن تعيشوا فى طاعة الله، فإن هذا ضرب من الغدر والخيانة» (بوبر ١٩٤٨).

وهذا جوداس ماجنيس رئيس الجامعة العبرية فى القدس يقول عند افتتاح الجامعة فى عام ١٩٤٦:

«إن الصوت اليهودى الجديد يتكلم عبر فوهات البنادق .. وهذه هى التوراة الجديدة لأرض إسرائيل .. لقد تكبل العالم بقيود جنون القوة المادية، وليحفظنا الرب الآن من اقتياد اليهودية وشعب إسرائيل إلى هذا الجنون. إنها يهودية ملحدة تلك التى طغت على جزء كبير من الشتات القوى. وكنا نعتقد زمن الصهيونية الرومانتيكية، أن صهيون ينبغى افتداؤه بالاستقامة والنزاهة. ويتحمل جميع يهود أمريكا مسئولية هذه الغلطة وهذا التحول... حتى من لم يوافقوا على تصرفات الإدارة الملحدة، ولكنهم ظلوا قاعدين مكتوفى الأيدى. إن تخدير المعنى الأخلاقى يؤدى إلى الضمور والهزال» (بتويس ١٩٥٤).

وفى عام ١٩٣٨ أدان ألبرت أينشتاين العالم الشهير صاحب نظرية النسبية التوجه الصهيونى الداعى إلى إقامة دولة يهودية بقوله:

«فى رأيى فإنه من المعقول أكثر التوصل إلى اتفاق مع العرب على أساس حياة مشتركة ومسالمة، بدلاً من إنشاء دولة يهودية. وإن إحساسى الذاتى بالطبيعة الجوهرية لليهودية يصطدم بفكرة دولة يهودية لها حدودها، وجيشها ومشروعها للسلطة الدنيوية مهما كانت متواضعة. وأخشى من الخسائر الداخلية التى قد تتكبدها اليهودية بسبب قيام قومية ضيقة فى صفوفنا.. وإننا لم نعد يهود عصر المكابى. ومجرد أن نصبح أمة بالمعنى السياسى للكلمة يساوى أننا سنحيد عن روحانية طائفتنا التى ندين بها لأنبيائنا» (مينوهن ١٩٦٩).

٥ ـ ليسوا وحدهم

ربما تكون السمات السابقة قد تجمعت وتكثفت في الشخصية الصهيونية بشكل جعلها علمًا عليها، ولكن هذا لا يمنع وجود بعض هذه السمات أو جلها في مجتمعات بشرية أخرى وفي مراحل مختلفة حين تتبنى هذه المجتمعات نفس الأفكار العنصرية العدوانية وتتشكل توجهاتها وسلوكياتها بوحي منها، فهذه السمات هي في النهاية تشوهات معرفية ووجدانية وسلوكية وهي بالتالي اضطرابات نفسية يمكن أن تصيب أي مجموعة من البشر ينحرف فكرها وتتحوصل في ثنايا شخصيتها معتقدات التفرد والنرجسية والعنصرية والتعالي على بقية البشر. ويبدو أن هذه الأفكار تبهر بعض الناس في أي مجتمع بشري فينادون بها في قومهم محاولين إحياء نعرات دينية أو قبلية أو عرقية وغالبًا ما يجدون ملبين لدعوتهم خاصة في فترات القهر وانسحاق الهوية حيث تكون هناك ميول تعويضية للخروج من الشعور بالدونية إلى الشعور بالاستعلاء أو التعالي. والنازية الألمانية في القرن العشرين وما نتج عنها من حربين عالميتين (قتل في الأولى عشرون مليونًا وفي الثانية خمسة وأربعون مليونًا) خير مثال على ذلك.

إذن فهذه الصفات تظهر من وقت لآخر في أي مجتمع بشري كوباء تهيء له وتساعد على انتشاره ظروف معينة، ولكن ما يلفت النظر أن هناك فرقًا بين ظهور هذه الصفات في مجتمع ما كمرض عابر في مرحلة تاريخية بعينها سرعان ما يتعافى منه ذلك المجتمع، وبين أن يتأصل هذا المرض ويصبح مزمنًا، بل يصبح نمط تفكير ونمط سلوك متكلس وراسخ، وهذا ما حدث للشخصية الصهيونية حيث طال أمد المرض فتأصل وتكلس، وتحوصلت جراثيمه في ثنايا هذه الشخصية. لذلك نستطيع القول بأن هذه السمات المرضية التي استعرضناها في هذا الكتاب متمركزة في الشخصية الصهيونية كجسم سرطاني، ولكن هذا لا يمنع من انتشار خلاياها السرطانية في أي مجتمع بشري آخر، وهذا ما حدث بالضبط في الدعوة النازية العنصرية حيث كان النموذج اليهودي للعنصرية والاستعلاء ماثلاً أمامها فاقتبسته ووظفته وطورته. والغريب في الأمر أن يكون اليهود أنفسهم هم أول من يكتوون بنار العنصرية النازية التي كانوا هم أساتذتها وملهميها.

ولا ينسى أي عاقل حين يتدارس سمات الشخصية الصهيونية (التي شقوا بها وأشقوا بها غيرهم) أن ينظر في نفسه ويفتش عن مثلها ويحاول علاجها من أقرب طريق. ومن الحمق أن نمارس جميعًا عملية الإسقاط فنلقي على تلك الشخصية المريضة كل عيوبنا وأمراضنا دون أن ننتبه لحاجتنا الشخصية للوقاية والعلاج، وربما لحاجة مجتمعاتنا أيضًا.

وإننا لنخشى أن يؤدى وجود وضغط العنصرية الصهيونية إلى نشأة عنصرية مقابلة تحت أسماء عربية أو إسلامية خاصة تحت تأثير القهر والسحق والإذلال الذى يمارسه الكيان الصهيونى كل يوم ويشاهده الجميع على شاشات التليفزيون. فالعنصرية مرض بغيض أيًا كان مصدره أو جنسه أو دينه.

وها هو روجيه جارودى فى مقدمته لكتابه "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" يحذر الجميع من هذه الأمراض بقوله:

«هذا الكتاب (إشارة إلى كتاب الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) هو تاريخ الهرطقة. وهو تاريخ يكمن فى جعل الدين أداة للسياسة بإضفاء القداسة عليها عن طريق قراءة حرفية وانتقائية للكلام المنزل. وهذا هو المرض القاتل فى نهاية هذا القرن الذى سبق لى أن عرّفته لدى المسلمين فى كتابى "عظمة الإسلام والحطاطه" مجازفًا بأن أغضب كل من لا يحبون أن أقول: "إن مسيح بولس ليس هو المسيح عيسى". وأنا أحارب هذه النزعة الآن لدى اليهود فى كتابى : " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" مجازفًا بأن أثير ضدى عواصف الصهاينة – الإسرائيليين الذين لم يعجبهم أن يذكّرهم الحاخام هيرش بأن: "الصهيونية قضت بأن يصبح الشعب اليهودى كيانًا قوميًا... وتلك هى الهرطقة» (جارودى ١٩٩٦).

الفصل الخامس

المآل والعلاج

المآل والعلاج

يتضح من الفصول السابقة أننا أمام حالة مرضية مزمنة استمر مرضها قرونًا طويلة وعجز الكثير من الأنبياء والمصلحين عن علاجها علاجًا جذريًا. ولكن المرض قد استفحل الآن كما لم يستفحل من قبل وتركز في جسم سرطاني هو الكيان الصهيوني الذى يقبع على أرض فلسطين مهد الرسالات السماوية العظيمة، وهذا السرطان مليء بالبثور والبؤر الصديدية (المستوطنات- المستعمرات). ونتيجة لأخطاء في الحسابات السياسية قامت أمريكا بمساندة هذا الجسد السرطاني وأمدته بكل أنواع السلاح حتى السلاح النووى. وخطورة الأمر تكمن في أن هذا الكيان العنصرى العدوانى تتحكم فيه مجموعة من المتطرفين الذين تمتلئ رؤوسهم بكل أنواع الأساطير والخرافات التى يلبسونها ثوب القداسة الدينية، وهم يستخدمون كل ذلك لتحريك المجتمع الإسرائيلى تبعًا لما فى رؤوسهم من انحراف. وهذه القوى الظلامية تشجع وصول قادة متهورين طائشين إلى مراكز السلطة والتأثير.

والنتيجة لهذه التركيبة، هى نفس النتيجة التى واجهها العالم من قبل حين سكت عن العنصرية النازية الهتلرية فدفع الجميع الثمن غاليًا. ويبدو أن سكوت العالم عن ما يحدث فى إسرائيل سيؤدى إلى كارثة بشرية يدفع ثمنها العالم كله، وربما يدفع من ساعدوا هذا الكيان ثمنًا أغلى من غيرهم.

إذن فالقضية ليست قضية فلسطينية أو عربية أو إسلامية. ولكنها أزمة بشرية عامة تؤذن بكارثة إنسانية ربما تطيح فى لحظة طيش بمكتسبات الحضارة البشرية، ولهذا فالتصدى لهذا المرض الصهيونى مسئولية كل إنسان يعيش على هذه الأرض كل حسب قدرته بمن فيهم اليهود أنفسهم، بل ربما يكون اليهود العقلاء فى كل مكان فى العالم أولى بالمبادرة بالعلاج قبل وصول الكيان الصهيونى إلى لحظة الانتحار وهو حقيقة فى طريقه إليها بما يفعله من سلوك طائش.

فواجب علماء الدين اليهود أن ينقذوا الديانة اليهودية من أن يلوثها الساسة الفاسدون البراجماتيون وأن يحفظوا لهذه الديانة روحانيتها ورسالتها القائمة على ربط الناس بربهم وإطلاق قوى الخير والحب والرحمة بداخلهم، وهذا هو هدف الرسالات السماوية جمعاء.

وواجب علماء النفس اليهود -وهم كثر- أن يتحلوا بالشجاعة، ويوضحوا

لأهليهم من اليهود أن الأساطير والخرافات ما هى إلا تشوهات معرفية تقود إلى تشوهات وجدانية وسلوكية، وأن غريزة العدوان لديهم تحتاج إلى تهذيب حتى لا تدمرهم أنفسهم، وأن التعصب والعنصرية وادعاء التميز ما هى إلا أمراض تحتاج لعلاج مخلص وطويل.

وعلى العالم الغربى أن يراجع نفسه قبل فوات الأوان فى فكرة زرع إسرائيل وسط العالم العربى لأهداف سياسية أو دينية، فإن الوحش الإسرائيلى الآن يهدد الجميع بما فيهم حلفائه الغربيين، والحمق الإسرائيلى والتطرف الصهيونى سيقضيان على كل شئ ولا يبقى إلا الخراب للعالم كله شرقه وغربه. والتعامل مع هذا الكيان المرضى يتطلب توعيته وإخراجه من غيبوبته الفكرية وإعادة تأهيله ليندمج ضمن الأسرة البشرية وقبل ذلك نزع أسلحته الفتاكة التى ربما تنطلق فى لحظة طيش بيد سياسى مغامر أو حاخام متطرف ليهدم المعبد على رؤوس الجميع.

أما العرب والمسلمون فهم الجزء المهم من الجسد البشرى الذى يحيط ويتخلل هذا الكيان، ووجود هذا الكيان المرضى بينهم فرصة لهم لاستعادة عافيتهم واستنهاض هممهم التى خارت فى عصور الترف والرفاهية والكسل. فدخول الفيروس لأى جسد يحمل إمكانية تنشيط جهاز المناعة لمحاصرة ذلك الفيروس وحوصلته وكف أذاه. وربما يقوم العرب بدور محاصرة المرض ومقاومته إلى أن يفيق العالم كله وينتبه إلى الخطر القادم إليه عبر العنصرية الصهيونية، ولن يستطيع العرب القيام بهذا إلا إذا امتلكوا وسائل القوة الروحية والمادية، فالكيان الصهيونى ككيان له طبيعة بارانوية لا يخنث ويتقوقع إلا إذا واجهته القوة والسيطرة بصوت أعلى من صوته وبأس أشد من بأسه.

ونجاح العلاج فى النهاية مكسب لكل البشر وأولهم اليهود لأن العلاج إنقاذ لهم من السلوك الانتحارى الذى مارسوه عبر كل العصور وإنقاذ لليهودية من تلوثها بفساد السياسيين والمغامرين الدمويين، وإنقاذ للبشر جميعًا من كارثة محققة.

المراجع العربية

القرآن الكريم: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المملكة العربية السعودية

الكتاب المقدس، العهد القديم: دار الكتاب المقدس بمصر، الإصدار الثالث ٢٠٠١، الطبعة الأولى ، القاهرة

إدريس، جلاء (١٩٩٦): صورة اليهودية الشرق فى الأدب العبرى المعاصر، مجلة عالم الفكر، يناير ١٩٩٦

المسيرى، عبد الوهاب (٢٠٠٠). الحلم الصهيونى تم تفويضه، مقال بجريدة الأهرام، ٧ نوفمبر صفحة ١١.

الرفاعى، جمال أحمد (١٩٩٦) . إشكالية الاندماج الطائفى فى شعر يهود الشرق فى إسرائيل، مجلة عالم الفكر، يناير – مارس ١٩٩٦.

الحفنى، عبد المنعم (١٩٧٣). اليهودية فى ضوء التحليل النفسى. ترجمة عربية لكتاب موسى والتوحيد لمؤلفه فرويد. مطبعة الدار المصرية، القاهرة.

إيدى، وليم (١٩٥٤). روزفلت وابن سعود (عن كتاب الأساطير المؤسسة لدولة إسرائيل لروجيه جارودى، دار الغد العربى).

بادى ، جوزيف (١٩٦٠) . القوانين الأساسية لدولة إسرائيل، نيويورك ص ١٥٦.

بتويش، نورمان (١٩٥٤). من أجل صهيون . سيرة دوادس ماجبنس. فيلادلفيا، منشورات الجمعية اليهودية فى أمريكا.

بوبر، مارتن (١٩٤٨). إسرائيل والعالم. نيويورك.

بيرفيت، آلان (١٩٩٠). الفيجارو، ٥ نوفمبر

بيجين ، مناحم (١٩٧٨). العصيان: تاريخ الأرجون. ص٢٠٠.

جارودى، روجيه (١٩٩٠). إسرائيل بين اليهودية والصهيونية . ترجمة حسين حيدر، الطبعة الأولى ، بيروت.

جارودى، روجيه (١٩٩٦). الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية. ترجمة عن الفرنسية قسم الترجمة بدار الغد العربى، القاهرة.

حماد، أحمد (١٩٩٦). اتجاهات محاربى ١٩٤٨ تجاه الوجود الصهيونى فى فلسطين من خلال دراسة رواية الروائى الإسرائيلى "يزهار سميلانسكى"، مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع والعشرون، العدد الثالث، يناير- مارس ١٩٩٦ ص ١٦٧.
حماد، أحمد (١٩٩٦). الاغتراب فى الأدب العبرى المعاصر. مجلة عالم الفكر، عدد يناير، ص ٤٩.
حمدان، جمال (١٩٩٦). اليهود أنثروبولوجيا. القاهرة
ديان، موشيه (١٩٩٧) جيروزاليم بوست، ١٠ أغسطس.
شلبى، عبد الجليل (١٩٩٧). اليهود واليهودية. كتاب اليوم، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة.
ظاظا، حسن (١٩٨٧) . أبحاث فى الفكر اليهودى. الطبعة الأولى بيروت.
ظاظا، حسن (١٩٩٠). الشخصية الإسرائيلية. الطبعة الثانية، دار القلم، دمشق.
عبد القادر ، حسين (١٩٩٣). موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، الطبعة الأولى، دار سعاد الصباح.
فرويد (١٩٥٥). موسى والتوحيد. الترجمة العربية بعنوان "اليهودية فى ضوء التحليل النفسى"، ترجمة عبد المنعم الحفنى، الدمياطى للنشر والتوزيع، القاهرة.
فراج، على مسعد طه (١٩٩٩). إسرائيل .. إلى أين؟!. الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.
قنديل، شاكر (١٩٩٣). موسوعة علم النفس، والتحليل النفسى. دار سعاد الصباح.
كوهين (١٩٨٦) . التلمود ، باريس، ص ١٠٤.
منصور، أنيس (١٩٩٩) . مواقف. جريدة الأهرام، ١٩٩٩/١/١٧.
مينوهن، موشى (حاخام) (١٩٦٩). الحلال اليهودية فى زمننا.
نلسون، توماس (١٩٦٧). أطهار ماساشوشتس اليهودية. المجلد السادس عشر، رقم٢، (عن كتاب روجيه جارودى: السياسة المؤسسة لدولة إسرائيل ١٩٩٦- دار الغد العربى).

هابر (١٩٧٩). مناحم بيجن: الرجل والأسطورة. نيويورك.
هرتزل (١٩٥٨). روزيلوم وجويش نيوزليتر. نيويورك ، نوفمبر ١٩٥٨.
هيكل، محمد حسنين (١٩٩٦). المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل. الكتاب الأول: الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية. القاهرة.

المراجع الأجنبية

Albert M (1914). Le Crime Rituel chez les Juifs; Paris.

Cecil R (1953). A short history of the Jewish people, London. Plate 79.

Eugene Pittard (1924). Les Races et L'Histoire, Paris.

Gyges (1956). Les Juifs dans la Société Francaise: Paris, p 28-29.

Max L. and Alexander Marx (1930): Histoire du Peuple Juif; Paris.

فهرس الموضوعات

• رقم الإيـداع : ١٣٤٨٢

• الترقيم الدولى : 9 - 19 - 5929 - 977